2274
8799
.362

2274.8799.362
al-Siba'i
Min al-'alam al-majhul

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072236084

يوسف السباعي

من العالم المجهول

al-Sibāʿī, Yūsuf

يوسف السباعى

Min al-ʿālam

من العالم المجهول

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى »

(قرآن كريم)

قد سألت الأرض عن سر الوجود   وسألت البحر والريح الشرود
والحيا والبرق يسرى والرعود   والدرارى والسموات العلى
كلها صدت ولم تنصت لداع

(عمر الخيام ــ محمد السباعى)

الناشر مكتبة الخانجى

للمؤلف

١ — أطياف
الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر
طبع فى شركة فن الطباعة — يناير ١٩٤٧

٢ — نائب عزرائيل
الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر
طبع فى شركة فن الطباعة — نوفمبر ١٩٤٧

٣ — اثنتا عشرة امرأة
الناشر : مكتبة الخانجي
طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الأولي — مارس ١٩٤٨
« الثانية — ديسمبر ١٩٤٩

٤ — خبايا الصدور
الناشر : دار النشر العربية
طبع فى دار الأحد ببيروت لبنان — مايو ١٩٤٨

٥ — يا أمة ضحكت
الناشر : مكتبة الخانجي
طبع في شركة فن الطباعة — أغسطس ١٩٤٨

٦ — اثنا عشر رجلا
الناشر : مكتبة الخانجي
طبع فى شركة فن الطباعة — فبراير ١٩٤٨

٧ — أرض النفاق
الناشر : مكتبة النهضة المصرية
طبع في مطبعة السعادة الكبري — أبريل ١٩٤٩

٨ — فى موكب الهوى
الناشر : دار الفكر العربي
طبع فى شركة فن الطباعة — يوليه ١٩٤٩

٩ — من العالم المجهول
الناشر : مكتبة الخانجى
طبع فى شركة فن الطباعة — نوفمبر ١٩٤٩

١٠ — هذه النفوس
الناشر : دار الفكر العربي
طبع فى شركة فن الطباعة — ديسمبر ١٩٤٩

الإهداء

الى أهل العالم المجهول ...

الى العفاريت والجن والأشباح والأرواح ...

أهدى كتابى هذا ، بلاسابق لقاء ولاقديم معرفة ، علّه يكون فاتحة صداقة بينى وبينهم .. ليذكرونني كما أذكرهم ، ويؤكدون لى وجودهم .. فيرسلون إلىّ - على سبيل الهدية - ماردًا من عفاريتهم فى «قمقم» أو فى «خاتم» يتصاعد شبحه مع الدخان إلى عنان السماء ويهز صوته أرجاء الأرض ويصيح بى «شبيك لبيك .. عبدك بين يديك» ...

فإذا استعصت عليهم الهدية .. أو استكثروها علىّ ..

فلا أقل من أن يرسلوا إلىّ «جنية» من جنياتهم حلوة الذات لطيفة المعشر ، تؤنس - إذا ما أرقت - وحشتى ، وتقصر ليلى ، وتهبنى متعة مأمونة مضمونة لامتاعب وراءها ولاعواصف ولازوابع .

هذا هو مطلبى المتواضع .. فإذا أبيتموه علىّ ، فإما أنكم بخلاء ناكرون للجميل .. أو أنكم - كما قلت دائمًا - لا وجود لكم إلا فى أوهام المخابيل .. وإن عالمكم المجهول .. عالم غير كائن .

يوسف السباعى

2274
.8799
.362

تحت الطبع

- أساطير الأولين
- مبكى العشاق
- صور طبق الأصل
- إنى راحلة .
- أم رتيبة .
- السقامات .

الغلاف بريشة الفنان رمزى لبيب

صور الكتاب بريشة الفنان حسن محمد حسن

المؤلف

[بريشة الأستاذ حسن محمد حسن]

مقدمة

أنا لا أومن بالأشباح والجن والعفاريت .. وما كنت قط خبيراً بعلم الأرواح ، وما حاولت أن أبحث فيها قليلا ولا كثيراً .. وما صادفت من الحياة إلا ناحيتها الظاهرة الملموسة التى تستنفد كل وقتى فتشغلنى عن التفكير فيما عداها مما خفى واستتر .

أليس من السخرية بعد كل هذا أن أضع عن العالم المجهول كتاباً .. وأنا أجهل الناس به وأضعفهم إيماناً بما فيه .

إنى أتوق لمخاطبة روح .. أو مصادفة جن .. أو مطاردة شبح .. حتى يتبدد من نفسى ذلك الشك الذى يحيط بكل ما وراء المادة من عالم مجهول .. وحتى أستجلى ، ولو مرة واحدة ، تلك الأشياء الخفية المبهمة المجهولة الغامضة .

كل ما أعرفه عن العالم المجهول لا يعدو السماع ، فأنا أسمع عن أرواح تهيم ، وأشباح تطوف ، وعفاريت تحوم ، وجِنِّيات تعشق .. وكلها ظهرت لأناس آخرين .. أما أنا ، فلا .. حتى لكأن بينى وبينهم تنافر مستحكم ، وبغضاء مقيمة ، فهى تأبى لقائى والظهور لى .

إثنان وثلاثون عاما .. لم أصادف فيها شيئاً عجيباً .. غير ملموس ولا محسوس .. ولا هبط علىّ وحى أنبأنى بنبوءة ، أو أطلعنى على سرّ .. ولا حلمت حلماً يعنى شيئاً أكثر من ترديد لما أحسه فى الحياة ، وأتشوّق إليه . والمرة الوحيدة التى حاولت أن أجد لأحلامى معنى .. وأتخذها قاعدة استنتج منها ما يوشك أن يحدث .. خذلتنى خذلاناً شديداً .. فقد حلمت ذات مرة قبيل الامتحان أنى رسبت ، فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسى ناجحا .. وفى السنة التالية تكرر الأمر .. فأدركت أن أحلام السقوط عندى لا بد أن يعقبها نجاح .. وفى العام الثالث حلمت أنى رسبت ، فرحت أغدو فرحاً مغتبطاً .. وكدت أسقى شربات النجاح .. فلما ظهرت النتيجة وجدت نفسى راسباً ـ بلا ملحق ـ .. ألم أقل لكم أن بينى وبين أهل العالم المجهول صلة مقطوعة ؟!!

إنى لأسائل نفسى فى بعض الأحيان : أحقاً ستحشد الأرواح من عهد آدم حتى القيامة ؟. وهل يحتمل العالم الآخر كل هذه الأرواح من بشر ، وكلاب ، وقطط .. ونحل ونمل .. وأسود وجراثيم ؟ أليس كلها كائنات حية ذات أرواح لا تفنى !

وإذا كانت الأرواح تتبادل الأجساد .. فكيف ينوى أن يقتسمها أصحابها .. ومن منهم أحق بها فى العالم المجهول ؟.

ولِمَ لا تكون نهاية الإنسان بسيطة .. كنهاية كل شىء ؟.. الفناء والعدم .

وتتواتر على الأسئلة الشيطانية وأنا صامت حائر لا أعرف لها جوابا .

ومع كل هذا التخبط فى التفكير والجهل بالحقيقة ، يتملكنى إحساس بأن هناك أشياء خفية . . أشياء لا شك فى وجودها . . ولكن أذهاننا البشرية أعجز من أن تدرك كنهها ، وأعي من أن تحيط بحقيقة كيانها .

ضله للإنسان . . ما جهل فى الحياة بشىء جهله بنفسه . . فهو ما زال يتخبط فى إدراك كنهه . . لا يكاد يعلم عن نفسه إلا أنه شعاع يخبو ، وبارقة تضمحل . . يشرف على عالم الفناء المجهول . . فلا يكاد يعرف من أسراره وألغازه ، إلا كما يعرف ذلك الجالس على شاطىء المحيط يدلى فيه بأطراف أصابعه .

ليجبنى محطم الذرة . . من أين أتى ؟ . . وإلى أين يذهب ؟ .

فلا أظنه بمجيب بأكثر من قول الخيام :

كَمْ بَذَرْنَا حِكْمَةَ الفِكْرِ البَصِيرْ

وَسَقَيْنَاهَا حَيَا العَقْلِ الغَزِيرْ

ما جَنَيْنَا غَيْرَ بُهْتَانٍ وَزُورْ

ما عَلِمْنَا غَيْرَ أَنَّا فى المَلَا

شُعَلُ البَرْقِ خَبَتْ بَعْدَ التِمَاعْ

يوسف السباعى

همسات على قبر

وظللت أتعثر وراءه وأخوض فى أوحال المقابر ، والريح تصفر من حولي فى فحيح كريه كأنه همس الجن أو حديث الشياطين . والظلمة سائدة الا من ذلك الشعاع المتحرك الذي يسلطه الرجل من بطاريته .

جلست وصديقى الطبيب النفسانى ذات ليلة نقطع الوقت بالحديث والتدخين . . . ونفث الرجل من فمه حفنة من الدخان تصاعدت إلى الجو فى حلقات متلاشية . . وأخذ يتمم حديثه قائلا :

« وهكذا ترى يا سيدى إنه ليس هناك أشد تعقيداً من النفس البشرية ، فلقد علمتنى دراستى وتجاربى إننا مهما وصلنا فى علمنا وبحوثنا ، فلن نعلم عنها إلا القليل . فهى غالباً ما تستتر وراء حجب زائفة لا تكشف عن حقيقتها . . فلا يكاد الإنسان يبصر من سواه إلا قشوراً تحجب اللباب ، أو زبداً يستر أغوار النفس العميقة .

أجل يا سيدى . . ما جهل الآدمى كالآدمى . . . فنحن لا نكاد نعلم عن بعضنا شيئاً إلا ما نراه من الظاهر الخداع . . أما الباطن المعقد المظلم الملتوى . . فما أشد جهلنا به . . حتى لأقرب الناس إلينا . . ولو استطعنا الوصول إلى اختراع نبصر به دخائل النفوس ونطلع به على خبايا الأفئدة ، لراعنا الفرق بين ما تضمر وما تظهر . . وهالنا التناقض بين ما تتكشف عنه الأعماق وما تبديه لنا المظاهر » .

وصمت صاحبى برهة . . جذب خلالها نَفَساً طويلا

من سيجارته . . وأخذ يتأمل فى الدخان المتصاعد كأنه يبصر فيه مناظر متجسدة .

وفكرت فيما قال ، فلم أجد به شيئاً غريباً . . وخاصة بالنسبة لطبيب مثله اطلع على كثير من دخائل النفوس المريضة . . وتكشَّف له الكثير من أسرارها وخفاياها . . وقلت له معلقاً على قوله :

ــ هذا كلام صحيح بالنسبة لمرضاك . . ولكنى أرى فيه شيئاً من المبالغة والتعميم . . . فالإنسان لا يعدم بعض الخلصاء ممن تشدهم الحياة إليه برباط من الثقة والصدق . . وتضمه وإياهم أواصر المودة والإخلاص ، فتنكشف نفس كل منهم للآخر ، وتتفتح صدورهم عن كل ما تبطن . . فتصبح النفوس ، وقتذاك ، صحفاً سهلة مقروءة بلا تعقيد ولا تمويه .

وضحك الرجل ضحكة ساخرة وهز رأسه قائلا :

ــ لا . . لا . . ياسيدى . . إن النفوس لاتنكشف أبداً . إنها قد تظهر بعض ما بها . . ولكن لاتظهر كل مابها . . لابد لها من شىء يبقى فى الأعماق ، ويرسب فى القرار . . لايبصره أحد . . لاصديق . . ولا غير صديق .

وصمت برهة وعاد يحملق ثانية فى الدخان المتصاعد ، وشرد به ذهنه كأنما يستجمع ذكريات غابرة ثم عاد يقول :

ـ أجل . . ما أشد جهلنا حتى بأقرب الناس إلينا . . سأقص عليك قصة صديق . . قصة صديق لا مريض . . فقد كان كل ما بيننا صداقة خالصة . . وما فكرت فى يوم ما أن بنفسه مرضاً حتى أتولى علاجه . . بل كنت أجده خير الناس . . وأسلمهم عقلا ونفساً وجسداً .

عرفته معرفة جيدة . . فقد كان يقطن بجوارنا فى نهاية مصر الجديدة . . ورغم الفارق الظاهر بيننا فى العمر ، فقد توثقت عرى الصداقة بسرعة .

كان طبيباً متقاعداً قد بلغ الستين من العمر ، وكان يقضى جل وقته : إما فى حديقة الدار الضيقة جالساً على مقعد خيزرانى يتمتع بشمس الشتاء . . . أو جالساً وراء النافذة البحرية يتمتع بنسمات الصيف .

وكان يعيش فى الدار وحيداً . . لا يؤنس وحشته سوى خادم عجوز تهيء له الطعام وترعى أمره وأمر الدار .

ولقد أحببت الرجل من أول لقاء . . فلقد كان من ذلك النوع من الناس الذى يبدو لنا كالبلور الشفاف . . لا تشوب نفسه شائبة ولا يعتم بريقها ضباب من مكر أو سوء ، أو بغض أو رياء .

كان رجلا ، لطيف المعشر ، حلو الحديث طيب القلب ،

نقى السريرة .. حسن الظن بالناس إلى حد قد يسميه البعض بلهـا .. وإن كنت أنا لا أرى فيه إلا سمواً فى الخلق وعلواً فى التفـكير .

وتبادلنا الزيارات .. يوماً بعد يوم .. وتعودنا أن نقضى سهراتنا سوياً إما فى دارى أو فى داره .. نقطع الوقت بلعبة الشطرنج ، أو تبادل الأحاديث والأقاصيص .. أو فى سماع مايستحق السماع من الإذاعة . ولم نـكن نكلف أنفسنا مشقة الرسميات .. إذ كان تجاور الدور يهيء لنا أن نتزاور بملابس البيت وقد وضع كل منا « روبا » على كتفيه .. وجلس فى منزل صاحبه كأنه فى منزله .

وأثبتت لى الأيام حسن ظنى بالرجل .. بل لقد وجدته خيراً مما ظننت ، فقد كان مفرطاً فى الطيبة ، مفرطاً فى حب الخير .. إلى الحد الذى يجعل طيبته نوعاً من أنواع الشذوذ . ويجعل ميله للخير مصدراً لمتاعبه .. فهو أبداً قلق .. لا يفتـأ يوخزه ضميره .. لتوهمه أنه كان يستطيع أن يفعل خيراً مما فعل .. فهو من ذلك النوع الذى نستطيع أن نسميه « عبد ضميره » .. وهو نوع متعب ، مجهد ، شديد القلق .

لاشك أن فعل الخير هو واجب كل إنسان فى هذه الحياة ولـكنى أعتقد أن الإفراط والمبالغة فى أى شيء .. حتى

فى فعل الخير . . يعتبر فى المرء نقيصة . . فهو يجعل من الإنسان « عبداً » لذلك الشىء الذى نسميه الضمير . . والذى يملأ نفوسنا بمركب الندم . . فيجعلنا نندم على كل شىء فعلناه . . ونتحسر لأننا لم نفعل خيراً مما فعلنا .

أجل يا سيدى . . يكفى أن نعطى لمحتاج حسنة . . أما أن نندم فى كل مرة لأننا لم نعطه أكثر مما أعطينا فتلك مسألة لا تطاق . . إن الضمير شديد الطمع فى الإنسان . . فيجب ألا نعطيه الفرصة . . لكى يستعبدنا ويتحكم فينا ، ويكبلنا بأغلاله ، ويفسد علينا حياتنا . . إن الحياة أقصر من أن نقضيها ونحن نجر وراءنا سلاسل الضمير .

فمثلا . . كان ضمن ما يثقل على الرجل ويسبب له قلقاً دائماً — بلا أدنى سبب — أرملة صديق له تقطن فى نفس الشارع . . ولست أنكر أن من واجب الصديق أن يرعى زوجة صديق راحل . . ويقضى حاجتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . . ولست أنكر أيضاً أن الأرملة العجوز . . أو — الست شفيقة — كانت تستحق كل رعاية وكل عناية . ولكنى رغم كل ذلك لم أكن أجد مبرراً لأن يثقل الرجل على نفسه بمثل ما أثقل عليها به . . وأن يحس دائماً إنه مقصر من أجلها ، ومن أجل صاحبه الراحل . . وإنه لا يكاد يشعر

براحة الضمير من فرط توهمه .. أنه لم يفعل من أجلها ما كان يجب أن يفعل .

ترى ماذا كان يستطيع أن يفعل .. خيراً مما فعل؟ .. لقد كان جم العطف عليها ، والبر بها . . دائم السؤال عليها . . يرعاها كما يرعى الابن أمه ، والأب ابنته . . ولست أشك فى أنها لو كانت أختاً له لما فعل أكثر مما فعل .

ولقد حاولت جهدى أن أسرى عنه ، وأفهمته أن للخير حدوداً ، وأنه قد فعل أكثر من واجبه . . وأن أحداً من أصدقاء صاحبه لم يفعل نصف ما فعل . . . ولكنه مع ذلك استمر على قلقه .. لقد كان « عبد ضميره » . . وكان لابد له أن يحس بالندم على شيء ، فلو لم يكن من أجل - الست شفيقه - لكان لأى سبب سواها .

وفى ذات يوم سألنى رأيى فى أنه يود أن يهب نصف دخله — للست شفيقة — حتى يعينها على العيش لأنه يحس أنها فى ضيق . . وإن معاشها لايكاد يكفيها . . ولقد أصابنى من قول الرجل دهش وسألته عما إذا كان جاداً فى قوله . فأجابنى إنه جاد كل الجد .

وأحسست للرجل بتقدير بالغ وإكبار شديد ، ولكنى رغم ذلك لم أستطع موافقته ، فلقد كان هو نفسه فى حاجة

إلى كل مليم من دخله . . وكنت أعرف أن المرأة لا تشكو من شيء ، وإنها — كما قالت عندما صادفتها فى زيارة له — تنعم بالستر ، وإنها تشكر الله على فضله . . ولم يكن يبدو عليها مظهر ضيق أو عسر . ولكن الرجل أصر على رأيه . . ولم يستمع إلى قولى . . فقد رأى أن هذا واجب عليه لا بد من أدائه ، وإنه مقصر لأنه لم يفعله قبل ذلك .

ورفضت « الست شفيقة » طبعاً ما عرضه الرجل ، وأنبأته شاكرة أنها ليست فى حاجة إلى شيء ، فمعاشها يكفى كل حاجتها وأنها لا تطمع فى خير أكثر مما هى فيه .

وفى ذات ليلة ، لا أظن ذكراها ستمحى من ذاكرتى قط ، كنت أجلس والرجل فى دارى ، وقد استلقى كل منا على أريكة وأخذنا نستمع إلى حفلة غنائية تذاع لأم كلثوم . وكانت ليلة من ليالى الشتاء الشديد القر ، التى تعصف ريحها فيسمع لعصفها صفير وفحيح .. وقد جلس الرجل أمامى مدثراً جسده النحيل برداء من — صوف الجمل — وتلفح « بكوفية » أحاطت رأسه وعنقه ونصف وجهه ، ووضع على عينيه منظاره السميك ، وتهدّل شاربه الأشيب مغطياً شفتيه ، وبدت شعرات بيضاء متناثرة حول ذقنه ، وبرزت عظام وجنتيه ، وأغمض عينيه نصف إغماضة ، وأخذ يهزّ رأسه ببطء ، ويضرب الأرض بقدمه متمشياً مع الأنغام .

ورويداً رويداً . . رأيت ضربات قدمه تخف ، وهزات رأسه تبطؤ ، وإغماضة عينيه تزيد . . حتى سقط رأسه على صدره ، وعلا شخيره ، وتملكه سلطان النوم . ولقد تعوّدت من الرجل تلك الطريقة فى النوم . . وتركته فى غفوته حتى انتهت الوصلة الغنائية .. فاستيقظ من تلقاء نفسه . . فلقد كان الانتقال من الضجيج إلى الصمت يوقظه ، وهتفت به ضاحكا :

— صح النوم . . يا أحمد بيه .

— أى نوم ؟ . . لقد كنت فى تمام اليقظة .

وكان هذا هو رده الدائم . . فما كان يعترف قط بأنه نائم ، ونهض من مجلسه ورافقته حتى الباب وودعني عائداً إلى داره .

ومضت ربع ساعة كنت خلالها قد تمددت فى الفراش ، وبدأت عيناى تغفو . . ونهضت فزعاً عندما سمعت طرقاً على الباب . . وأسرعت إليه ففتحته ، وإذا بالرجل قد عاد مرة أخرى . . وخشيت أن يكون قد أصابه شىء ، فهتفت به فى قلق :

ــ أدخل . . ما بك ؟

ودلف الرجل إلى الداخل ، وأقفلت الباب فى عجلة ، فقد كانت تنفذ منه ريح باردة تلسع العظام . . وتأملته على ضوء مصباح الصالة ، فوجدته قد ارتدى ثيابه الكاملة . . بدلته وطربوشه ، وحذاءه ، ومعطفه الأسود الثقيل ، ولف وجهه جيداً بالكوفية .

وصمت الرجل برهة ، ثم قال فى صوت ملؤه القلق والتردد :

ــ لقد . . لقد نسيت شيئاً . . شيئاً هاماً .

وبدت على ملامحه تلك العلامات التى تنبىء بأن ضميره الطامع فى خيرة قد عاد يثقل عليه كعادته ، وأحسست بالشفقة عليه . . إن الرجل خير منا مائة مرة . . ومع ذلك فان ضميره غير قانع . . إنه يريد أن يكون خيراً مما هو . . ترى ماذا به هذه المرة ؟

وقلت أسأله فى رفق :

ـ ماذا نسيت يا احمد بك ؟ .

ـ نسيت أمراً هاماً .. كان يجب أن أنتهى منه . ولكنى أعتقد أن الفرصة لم تذهب . . ما زال هناك بعض الوقت .

وصمت برهة ثم عاد يتمتم متردداً :

ـ هل . . هل استطيع أن أستعير عربتك . . فلا شك أنها ستسهل لى المهمة .

وسألته فى دهشة :

ـ تريد أن تخرج بالعربة الآن . . فى هذه الساعة المتأخرة وفى هذا الجو المكفهر ؟

وكان المطر قد بدأ يتساقط . . ووصل إلى آذاننا صوت قطرات الماء تقرع زجاج الباب . . ووجدت أن من الجنون أن أوافق الرجل على مايطلب ، فأعطيه العربة ليقودها وحده فى تلك الساعة من الليل وفى زلق الطريق . . وأنا غير واثق من قدرته على القيادة . . إنى لاشك أكون ملقياً به إلى التهلكة . وبدا لى الرجل فى حالة اضطراب شديد . . فقلت له مهدئاً ، وأنا أقوده إلى الداخل :

ـ تعال نجلس برهة . . اشرح لى المسألة .

ـ المسألة لا تحتاج إلى شرح . . إنى أريد عربتك لقضاء حاجة .

ــ ولـكن من الجنون أن أدعك تقود العربة الآن وأنت فى مثل هذه الحالة من الاضطراب .

وأطرق الرجل فى حزن ، ثم قال بصوت خفيض :

ــ حسناً . . أستطيع أن أجد وسيلة أخرى . . أو أذهب حتى سيراً على الأقدام .

ــ ولـكن فى هذه الساعة ؟ . . كلا . . إن هذا جنون . . لِمَ لا تنتظر حتى الصباح ؟

ولـكن الرجل لم يجب . . وظهرت على وجهه علامات الإصرار . . ومدّ يده إلىّ مودعاً . . وهمّ بأن يتجه نحو الباب ولـكنى لم أترك يده . . فقد وجدت أن من الحمق أن أتركه وحده . . وعدت أقول له :

ــ إذا كان لابد لك من العربة . . فسآتى أنا معك لقيادتها . . أما أن أعطيها لك لتقودها وحدك ، فهذا ما لن أفعله قط . . ما رأيك ؟ .

وصمت الرجل برهة ثم أطرق برأسه قائلا :

ــ حسناً . . هيا بنا .

وأسرعت بارتداء ملابسى وقد تملـكنى خليط من السخط والدهش . . السخط على الرجل الذى حرمنى من النوم . . واضطرنى إلى الخروج فى مثل ذلك القر والمطر . . والدهش

مما يريد أن يفعله فى مثل هذه الساعة . . ولا يحتمل التأجيل حتى الصباح .

وبعد لحظات كانت العربة تنساب بنا فوق الأرض اللامعة التى صقلها المطر .

وأخذت قطرات المطر تضرب زجاج العربة ، وبدا لى الطريق ، وقد امتدت على جوانبه المصابيح الخابية الضوء ، الناعسة الطرف من خلال الفتحة المثلثة التى رسمها أمامى الماسح الذى أخذ يروح ويجىء ماسحاً الزجاج مما علق به من شوائب المياه ، وسرنا بالعربة مخترقين شارع الخليفة المأمون ثم شارع العباسية ، كما طلب منى الرجل ، حتى وصلنا إلى تقاطع شارع سعيد بشارع العباسية . . ثم طلب منى أن أتجه إلى اليسار . . ولكنى سألته فى دهشة :

— إلى اليسار ؟

— أجل .

ولم يكن الطريق إلى اليسار ليؤدى إلا إلى قلم المرور ، أو « مقلب الزبالة » ، أو « قرافة الغفير » . . ولم أستطع أن أفهم ماذا يمكن أن يكون غرض الرجل من الذهاب إلى أى من تلك الأماكن فى هذه الساعة من الليل . .

واتجهت إلى اليسار كما طلب ، وأنا أحاول عبثاً أن أستنتج

ماذا ينوى الرجل فعله ، وأخذ الرجل يوجهنى يمنة ويسرة .. وأنا أحملق فى الطريق حتى وجدت العربة فى طريقها بين المقابر .

أنا لست بالرجل الجبان .. ولا بالرجل الذى يتوهم وجود الأشباح والعفاريت .. ولا حتى بالذى يحس للموت برهبة أو خشية .. بل أنى أعتبره نهاية حتمية لكل كائن .. وعلى هذا فليس للمقابر فى نفسى أى أثر وهمى .. لأنى لا أعتبرها أكثر من صناديق للقمامات .. القمامات البشرية . أو المخلفات الإنسانية .. أو الرمم والعظام المختلطة بأديم الأرض .. هى « ومقلب الزبالة » سواء .

ولكننى رغم ذلك لم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى بدنى وأنا أجد نفسى بين المقابر ، وقد أحاطتنى ظلمة حالكة إلا من شعاع مصباح العربة الذى يخترق طريقه فى الظلمة حتى يقع فى النهاية على قائم أحد القبور .

وطلب منى الرجل أن أقف ، ثم رأيته يفتح باب العربة وينزل إلى الطريق .

ثم يطلب منى أن أنتظره ريثما يعود ..

وخشيت عليه أن يصيبه أذى ، فقفزت من العربة وسألته إلى أين .. وماذا ينوى أن يفعل ، فقال لى أنه سيغيب عنى عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر . ولكنى لم أتركه بل أخذت أتبعه ،

ورأيته قد أخرج من جيبه بطارية صغيرة يتبين طريقه على ضوئها. وظللت أتعثر وراءه وأخوض فى أوحال المقابر، والريح تصفر من حولى فى فحيح كريه كأنه همس الجن أو حديث الشياطين.. والظلمة سائدة إلا من ذلك الشعاع المتحرك. الذى يسلطه الرجل من بطاريته على رؤوس المقابر.

وأخيراً توقف أمام باب خشبي، ودفعه بيده، فأحدثت مفاصله الصدئة صليلا مخيفاً بعث القشعريرة فى بدنى، ودلف الرجل إلى الداخل، فحاولت أن أتبعه، ولكنه توقف فى طريقى وسألنى مستعطفاً:

— أرجوك أن تنتظرنى هنا.. دعنى أدخل وحدى.

ولست أدرى ماذا كان يدفعنى وقتذاك إلى أن أصرّ على اتباع الرجل حتى النهاية.. أهو خوفى عليه أم حب الاستطلاع الذى كان قد بلغ عندى وقتذاك أشده.. أم هو خليط من هذا وذاك.

وأجبت الرجل بإصرار وعناد:

— لن أدعك وحدك أبداً.

وصمت الرجل برهة، ثم أطرق برأسه وقال بصوت خفيض:

— إذاً فلا تضحك علىّ.. أرجوك.. سأدخلك بشرط

ألا تسخر منى .. قد يكون فيما سأفعله شيء يبعث على الضحك والسخرية ، ولكن أؤكد لك أن هذا واجب أؤديه .

وأفسح لى الطريق ، وأخذ كلانا يسير إلى الداخل حتى وصلنا إلى قبر قد تسلقته إحدى نباتات الصبّار .. ورأيت الرجل قد توقف ورفع كفيه إلى السماء وأخذ يتمتم قارئاً « الفاتحة » ، فقلدته فيما فعل . وما انتهيت حتى بدأ يوجه إلى الحديث فى صوت هامس :

— إن بينى وبين صاحب القبر موعداً للقاء ، فى مثل هذا اليوم من كل عام ، وهو يوم وفاته .. وكل ما أرجوه هو ألا يكون قد قلق من طول الانتظار وظن أننى قد نسيت الموعد فانصرف .. إنه صديقى «إبراهيم» افندى زوج « الست شفيقة » .. لقد كنا خير أصدقاء .. ولقد اتفقنا قبل أن يموت على أنه إذا مات أحدنا قبل الآخر فعلى الباقى على قيد الحياة أن يزوره مرة فى كل عام لكى يحمل إليه أخبار الدنيا وما حدث فيها خلال العام .. ولقد وفيت بوعدى كل السنين السابقة .. ولكنى كدت أنسى الموعد اليوم .. حمداً لله .. إنى قد تذكرت . ماذا كان يقول الرجل عنى لو لم أحضر ؟

وعصفت الريح فدفعت الباب دفعة قوية وتملكنى من صوت اندفاع الباب خوف مفاجىء .. ورفع الرجل سبابته

إلى شفتيه طالباً منى الصمت ، ثم سمعته يقول بصوت مرتفع : « السلام عليكم » .

ولم يجبه أحد ولكن الريح أخذت تعبث بالباب المفتوح فأحدثت به عدة طرقات بدت كأنها رد للتحية ، وأخذ الرجل يتمم حديثه والريح تقرع الباب بين آونة وأخرى . . قرعات عادية جداً . . كما تفعل الريح دائماً بكل باب أو نافذة مفتوحة . ومع ذلك فقد بدت القرعات وقتذاك كأنها إجابات لحديث الرجل . . وكانت تبعث فى جسدى قشعريرة خوف .

وأخذ الرجل يخاطب صديقه صاحب القبر قائلا :

— إن معى اليوم صديقاً عزيزاً . . الدكتور محمود . . رجل لطيف ذو مروءة .

وقرع الباب كأنما يحمل إجابة الروح - تشرفنا - أو - أهلا وسهلا - وعاد صاحبى يتابع حديثه قائلا :

— سأبدأ فى قراءة الأخبار . . لقد دونتها كعادتى حتى لا أنسى منها شيئاً . .

ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية ونشرها أمام عينيه ، ثم خلع منظاره ومسحه بطرف منديله ، وبدأ يقرأ ممسكا الورق بإحدى يديه ، مسلطاً ضوء البطارية على الكلمات باليد الأخرى . . قال الرجل :

ـ الأخبار الداخلية .. لاجديد يذكر . . البلد ما زالت كما هى . . الحكومة فى واد والشعب فى واد . . الحكومة فى وادى العز والسلطان والجاه والأبهة . . والشعب فى وادى الفقر والبؤس والمرض والجهل . . الوزارة هى . . هى . . يقول المعارضون إنها تموت غداً . . وتقول هى أنها تعيش أبداً . . ذهبنا إلى مجلس الأمن . . وشكينا وبكينا . . وتوسلنا إلى الذئاب أن ينقذونا من أخيهم الأسد . . وقلنا لهم إنه شبع فينا عضاً . . ونهشاً ، وأنه يوشك أن يلتهم نصفنا الأسفل وينهش نصف أحشائنا . . وغضبت الذئاب . . لا على الأسد بل علينا . . لأننا ناكرون للجميل . . حانثون بالعهد . . وقالوا لنا خير لكم أن تتفاهموا مع أخينا الأسد مباشرة . . تفاهموا معه وأحشاؤكم بين أسنانه . . وعنقكم فى فكيه .

عدنا من مجلس الذئاب . . مهللين مكبرين . . لِمَ ؟ لاأدرى والله . . هذه مسألة لازلت أفكر فيها حتى الآن . . وقد أستطيع أن أحدثك عنها فى العام القادم . . عدنا عود الغزاة الفاتحين . . رغم ما نالنا من فشل وهزيمة . . وعلقنا الأعلام ونصبنا الزفف . . ولعل ذلك من باب التفاريح والعزاء . . إن أحداً لايلومنا على الهزيمة . . ولكن اللوم كل اللوم على أن

نفرح بالهزيمة . . ونجعل منها أمام أنفسنا انتصاراً . .

وأعطت الوزارة نفسها الخازوق الأكبر . . ولم تستقل ولو استقالت وقتذاك لاستطاعت أن تحتفظ بما كسبته مدى الدهر . . ولأوضحت للناس أنها كانت جادة فيما قالته فى مجلس الأمن وأنها أتت بما لم تستطعه الأوائل . . ولكنها لم تفعل بل أغراها السلطان أو أغريت به . . وبدأت تخسر ما كسبته شيئاً فشيئاً . . وبدا للناس أن كل مافعلته مظاهرة أو « زوبعة فى فنجان » . . وبدأت هى تلوذ بسياسة عجيبة . . هى سياسة التجاهل . .

لقد كان الانجليز يتجاهلوننا . . فأصبحنا نتجاهلهم . . ترى هل هناك أى فارق فى النتيجة . . هل هناك فارق بالنسبة المدين . . بين أن يتجاهل هو الدائن أو يتجاهله الدائن ؟ .

لقد أغرقتنا بعد ذلك سياسة التجاهل . . التجاهل من كل ناحية .

فالإنجليز يتجاهلوننا ويفعلون ما يشاءون . . ونحن نتجاهلهم فنغض الطرف عما يفعلون .

أما الأخبار الخارجية . . فلا شىء جديد . لا جديد أبداً . . إن التاريخ البليد يعيد نفسه كأنما يعطينا من الماضى

القريب صورة (طبق الأصل) منه بالـكربون . . نفس المطامع ونفس التطاحن ونفس التـكتل . . ونفس مهزلة عصبة الأمم . . التى سميت الآن هيئة الأمم . . لا جديد أبداً . . إن البشر مازالوا كما هم . . حمقى مجانين . . كيف يغير التاريخ وجهه . . وهم لايغيرون ما بأنفسهم .

وصمت الرجل . . ورأيته يطوى الورقة ويضعها فى جيبه ويصمت برهة ثم يعاود الحديث قائلا :

— بقى لى معك حديث خاص . . أود أن أسرّ إليك به ، لقد ترددت كثيراً قبل أن أقدم على قوله . . ولـكنى صممت فى النهـاية على أن أقوله . . فإنى لا أستطيع أن أحتمل عاماً آخر من وخز الضمير .

هل تذكر وفاتك ؟ . . طبعاً تذكرها . . لقد كانت عقب مرض طويل . . توليت أنا علاجك منه . ولاشك أن وفاتك قد بدت طبيعية لـكل الناس . . حتى لك أنت . . ولـكنها لم تـكن كذلك . . إنى أحمل نفسى مسئوليتها . . أنا لم أقتلك بالطبع وأنت تعلم ذلك . . ولـكنى أعتبر نفسى مسئولا عن موتك . . إننى قاتل أمام نفسى فقط . . كنت أستطيع أن أمنع وفاتك . . أو على الأقل أؤجلها . . كنت أستطيع أن أمنحك فترة حياة أخرى . . ولـكنى لم أفعل . . بل تركتك

تموت .. كنت أستطيع أن أبذل جهداً أكثر مما بذلته من أجلك ، ولكنى لم أبذل .. لأنى كنت أريدك أن تموت قبلى هل تدرى لِمَ ؟ .

إنك لاشك تذكر زواجك .. لقد كان ذلك الثلاثين عاماً . . منذ زمن طويل .. ولكنى مع ذلك لم أنسه قط .. فلقد كان صدمة لى .. لأنى كنت على وشك أن أخطب « الست شفيقة » .. فلقد أحببتها كما لم يحب إنسان .. ولكنك سبقتنى إليها ففزت بها ، وبؤت أنا بالخيبة والخذلان . تزوجتها أنت ، ولا شك أن حبك لها - إن كنت قد أحببتها - قد خبا على مر الأيام .. أما أنا فقد أبقى الحرمان على حبى ، فما انطفأت جذوته ولا خبا لهيبه .. ولم أقدم على الزواج ، بل عشت وحيداً ، لأنى لم أكن أجسر على التفكير فى أن أتزوج سواها .

ومرت الأيام والسنون ، وقد طويت حبى بين الحنايا .. وقنعت منه بصداقة خالصة لاتشوبها شائبة .. فأخلصت لك ولها ، راضخاً لحكم القدر .. راضياً بما وهبنى إياه .. حتى بدأ الهرم يدب فى ثلاثتنا ، وما زال حبى كما هو .. ومرضت أنت وطال بك المرض .. وأنا أتولى علاجك والعناية بك .

ولقد سألت نفسي ذات يوم .. ما النهاية .. وكيف

المصير .. هل قضى عليّ
بالحرمان مدى العمر ؟
هل قدّر لى أن أخرج
من الحياة صفر اليدين .

وساورنى إذ ذاك خاطر بعث فى نفسى بعض الأمل وبعض العزاء .. لقد قلت لنفسى أنك قد تخرج من الحياة قبلى .. فيخلو لى الطريق وأستطيع أن أمتع نفسى المحرومة .. بضع لحظات فى نهاية العمر .. أستطيع أن أدفىء القلب المقرور بأشعة الشمس الغاربة الهاربة .

وقوى مرضك هذا الأمل فى نفسى .. وأخذت أنتظر فى هدوء وسكينة .. أن تتفضل وتترفق بى .. وتغادر الحياة .

ولكن مرضك قد طال .. وبدأ القلق يساورنى .. وتملكنى خوف من أن يسخر منى القدر فيخرجنى من الحياة قبلك .. وأغادر الحياة كما دخلتها ، محروماً محسوراً .

وبدأت أقدر الموقف .. فوجدت أنك قد نعمت بها ـ أعنى بزوجتك ـ ثلاثين عاماً .. إنك قد أخذت من الحياة قدراً كافياً وفزت منها بنصيب الأسد .. وإنك الآن لم تعد تتمتع منها بشىء .. فإن حياتك مع المرض الذى اعتراك ،

حياة ضيق وتبرم . . وأن خروجك من الحياة خير لك . . ولى . . فلا شك أنك لن تأبى علىّ – وأنت الرجل الكريم – أن تهبنى بضع سنوات من خريف الحياة بعد أن تمتعت أنت ببهجة الربيع وازدهاره .

وهكذا أقنعت نفسى . . أن كل جهد أبذله لإطالة حياتك هو جهد ضائع . . لأنى أهبك لحظات لن تجدك نفعاً ، ولكنها تسبب لى خسارة . . أجل لقد كنت أهبك لحظات من حياتى ومن متعتى .

وبدأت أتراخى فى علاجك . . فقل جهدى . . ولم أعد أقبل على العناية بك بنفس الإخلاص ونفس الرغبة .

ولست أدرى إن كان ذلك التراخى منى قد عجل بنهايتك ، أم أن أجلك هو الذى قد حان . . ولكن الذى أدريه هو أنى قد ذهبت إليك ذات صباح فوجدتك قد فارقت الحياة .

وبكيتك كما بكتك زوجتك . . بكيتك مخلصاً . . فلقد أحزننى فقدك .

ولم تستطع تلك الرغبة الخفية فى الخلاص منك ، وفى أن تسبقنى إلى الخروج من الحياة . . أن تخفف لوعتى على فراقك . . فقد كانت صداقتنا صداقة عمر . . وكنت أحبك . . فما رأيت منك إلا كل خير وكل صنيع حسن .

ومرت الأيام بعد موتك . . وكنت أحس دائماً بنوع من تأنيب الضمير . . تزداد وطأته كلما أبصرت بزوجتك . . ورأيت حزنها ووحدتها . . وبدأت أشعر أن واجبي الأول هو أن أعينها في حياتها .

ولقد خلا لي الطريق بعد ذهابك .. ولكني وجدته شديد الظلمة والوحشة ، ولم أر له البريق الذي كنت أتخيل .

ومع ذلك ـ ولا أكتمك القول ـ أنني لم أستطع أن أقاوم تلك الحماقة التي دفعتني إلى أن أسألها الزواج . . فأدهشها قولي . . ولم يسعها إلا أن تردعني برفق وعطف . . كأنها أم حنون .

إني أحس أنها تعيش في ضنك ، ولقد حاولت أن أعينها بشيء تافه من المال . . ولكنها أبت . . ولشد ما يثقل عليّ ألا أستطيع معاونتها وأن أشعر أنني كنت السبب فيما أصابها .

لقد كنت مخطئاً كل الخطأ في إخراجك من الحياة . . فاني أشقيتها دون أن أشعر نفسي بأية سعادة . . وبت أحس أني قد أجرمت في حقك وفي حقها وفي حق نفسي . . وثقلت عليّ وطأة الضمير . . ويخيل إليّ أن هناك طريقاً واحداً لإصلاح ما أفسدت ، لقد فرقت بينكما . . فليس هناك

ما أستطيع التكفير به عما فعلت سوى أن أجمع بينكما مرة أخرى .

ولقد كان بودى أن أعيدك إليها . . ولكن هذا ـ كما تعلم أنت خير العلم ـ أمر يستحيل علىّ عمله . . وعلى ذلك فلم يبق أمامى سوى أمر واحد . . وهو أن أعيدها إليك . . فذلك شيء أظننى أستطيعه . . أجل إنى سأرسلها إليك فى أقرب فرصة أقرب مما تتصور . . وسأصبر أنا على فراقها وأتجلد وليعنى الله على احتمال الحياة . . حتى يخرجنى منها إليكم .

* * *

وصمت الرجل . . وسمعت الريح تقرع الباب بشدة . . ورأيته يرفع يده بالتحية قائلا « السلام عليكم » .

واتجهنا إلى الباب ، وسرنا فى صمت ، وقد تملكنى دهش شديد ، وأخذت أستعيد لنفسى ماقاله الرجل . . فهالنى الأمر .

إن الرجل ـ كما اعترف أمام القبر ـ رجل قاتل . . وهو على وشك أن يقدم على ارتكاب جريمة أخرى . . هى كما يسميها إعادة المرأة إلى زوجها الذى أخرجه من الحياة .

ولم أشك وقتذاك فى أن الرجل مجنون . . وأن أول ما يجب علىّ القيام به هو أن أنقذ من براثنه ـ الست شفيقة ـ

التى ينوى أن يخرجها من الحياة فى أقرب فرصة . . وبعد أن أنقذها أبلغ عنه ليرسلوه إلى مستشفى المجاذيب .

ووصلنا إلى الطريق وسارت بنا العربة دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة حتى وصلنا إلى دورنا ، وشد الرجل على يدى مودعاً وعاد إلى بيته .

ولم أذهب إلى دارى بل انطلقت إلى دار الست شفيقة . . لقد كنا حقاً فى ساعة متأخرة من الليل . . ومن الحمق أن أوقظها فى ذلك الوقت . ولـكن المسألة كانت مسألة حياة أو موت . . إن الرجل المجنون قد عزم على أن يلحقها بزوجها . . فى أقرب فرصة . . أقرب مما نتصور .

وقرعت بابها . . ولم يجبنى أحد فى بادىء الأمر . . ولـكننى بعد لحظات أحسست خطوات ثقيلة تقترب من الباب وتفتحه ، وأطل علىّ وجه الخادم . . وقد بدا عليها ذعر شديد . . وسألتنى عما بى وعما أريد .

فقلت لها فى عجلة : إنى أريد أن أرى سيدتها فى أمر هام ، فأجابتنى فى دهش : إنها نائمة وإنها لا تستطيع إيقاظها . ولـكنى أصررت على أن توقظها . وقلت لها إن المسألة خطيرة جداً .

وأغلقت الخادم الباب ، وعادت إلى الداخل . . ووقفت فى الخارج أنتظر الرد فى ضيق وقلق .

وفجأة سمعت صياحاً وولولة، ورأيت الخادم تهرول نحو الباب وتطل عليّ لتخبرني باكية .. أن سيدتها قد ماتت . لقد تركت الحياة .. أسرع كثيراً مما نتصور .

ه * *

وصمت محدثي .. وطال به الصمت وهو يحملق فى الدخان المتصاعد من سيجارته .. وبدا لى كأنه قد انتهى من قصته .. وقطعت عليه صمته متسائلا :

— والرجل ؟! . ماذا فعلت به ! .

— لا شيء .. وماذا كنت أستطيع أن أفعل به .. وقد خرج هو الآخر من الحياة قبل شروق الشمس .. أجل ياسيدى لقد مات الرجل فى نفس الصباح .

— أمر عجيب !!.

— عجيب .. وغير عجيب .. إن المسألة كلها لا تعدو أن تكون طبيعية ، لا جريمة فيها ، إذا حاولنا أن نفحصها من الناحية المنطقية المعقولة .. وهى مسألة عجيبة إذا ما حاولنا أن ننظر إليها من وجهة النظر الأخرى وجهة نظر الرجل نفسه .

فإذا حاولنا أن نفسرها من الناحية الأولى فإننا نجد أن

الزوج الراحل قد مات موتة طبيعية نتيجة لمرض عادى ، ولكن صاحبنا الطبيب ، وهو كما قلت لك ، مصاب بمرض الضمير أو من النوع الذى نسميه «عبيد الضمائر» الذين يحسون بندم على كل ما يفعلون قد تخيل له أنه قصّر فى علاج الزوج وأن تقصيره هذا قد سبب وفاته . . واستمر ضميره يثقل عليه حتى أصابه بنوع من الجنون . . هيأ له أن يقتل المرأة ليبعث بها إلى زوجها فى الحياة الأخرى .

وصادف أن ماتت الزوجة فى تلك الليلة موتة طبيعية . . ثم مات هو فى الصباح نتيجة لذلك الجهد الذى بذله ، ونتيجة لتعرضه للصقيع والمطر .

هذه هى كل المسألة لا عجب فيها ولا غرابة .

أما إذا حاولنا أن نراها من وجهة نظر الرجل ، فإننا نجد فيها مسألة عجيبة حقاً فالرجل قد قتل الزوج خوفاً من أن يموت هو قبله فلا يستطيع أن يتمتع بالمرأة التى أحبها ولو حتى فى خريف العمر . . ثم ندم على ما فعل ، وأشقاه حزن المرأة ورفضها زواجه . . فألحقها بزوجها . . متخيلا أن فى ذلك راحة لها وتكفيراً عما فعله بزوجها . . وزادت عليه وطأة الضمير . . فلم تشرق عليه شمس اليوم إلا وقد ألحق نفسه بالسابقين .

ويخيل إلىّ أننا لو أردنا أن نختتم القصة على لسان الرجل أو لو استطاع أحد أن يوجد بجواره فى تلك اللحظة التى أقدم فيها على الانتحار ، لسمع منه تتمة ذلك الحديث الذى ألقى به على قبر الزوج الراحل :

« لقد أرسلتها إليك .. إنكما لاشك تسعدان الآن بلقاء ممتع .. إنى أحس بوحشة الحياة .. ومرارة الفراق .. وأحاول أن أصبر وأتجلد .. ولكننى لا أستطيع .. لقد قضيت حياتى محروما ، ولكن خير ما كان يعيننى على الحياة هو إحساسى بوجودها وأنى أستطيع أن أراها وقتما أشاء وأحس بعطفها علىّ .

أما الآن فماذا يعيننى على الحياة .. ماذا يغرينى على البقاء فيها .. لا .. إنى لا أحتمل الوحدة .. إنى قادم إليكما » .

أرواح هائمة

تعالي معنا .. والق به فى اليم
أو بعـثره على الربي . . انك لن
تستطيع أن تبتاع به شروق شمس
أو حب قلب .

الزوابع من حولها ، وزاد عصف الريح وزئير الأنواء .. وأحست كأنها تهيم فى فراغ شديد الحلكة ، معتم الدياجير .. وتلفتت حولها فى فزع تتلمس ملاذاً تلوذ به ، أو مقراً تستقر فيه .. فلم تجد سوى الفراغ والظلمة . وأخيراً رسا القارب على الشاطىء ، محدثاً قرقعة شديدة ، سرت منها قشعريرة فى بدنها ، وخيّل إليها أن الشاطىء الصخرى قد حطم القارب ومزقه إرباً .

اشتدت

وبعد برهة وجدت نفسها وحيدة على الشاطىء وقد خيم من حولها الظلام ، وساد السكون إلا من همهمة الريح وهدير الموج ، وتلفتت حولها فلمحت على ضوء القمر الخافت شبحاً يقترب منها ما عتمت أن ميزت فيه توأم نفسها وصنو روحها ، فندت عنها صرخة خافتة وعدت إليه لترتمى بين أحضانه ...

وضمها صاحبها إلى صدره فى رفق وحنان ، وهمس فى أذنها بصوت يفيض رقة وولها :

— ما كنت أحسب ، ياحبيبتى ، إننا سنلتقى مرة أخرى . لقد كنت أحس بفرط الوحشة ، وكنت أسير كضال فى بيداء مقفرة مجدبة ، لا ماء فيها ولا رواء .. كنت أهتف باسمك

فى كل خطوة أخطوها . . ما دعوت الله بأحر مما دعوته لكى يعيدك إلىّ . . سلى الرمال كم مستها جبهتى سجوداً لله من أجلك . . سلى الريح ، والصخور ، والمياه ، إن كانت تعى شيئاً غير اسمك وصلاتى من أجلك .

ـ صلاتك من أجلى . . وصلاتى من أجلك . . أجل ياحبيبى . أنا أيضاً ما فعلت شيئاً سوى الصلاة لكى أعود إليك . . إن الله ، ياحبيبى ، رحيم لا ينسى عباده المحبين المخلصين الأوفياء البررة . . كم جاهدت وكم كافحت . . لكى أصل إلى الشاطىء . . كانت الفرقة مضنية والبعد مريراً . . كنت أريدك . . أريد همساتك الحنون ، وصدرك الدافىء . . كنت أريد ضمة ذراعيك ، ومسة شفتيك . . وكنت أومن بك ، وبقوة الصلة التى تشد أحدنا إلى الآخر . . فلم أدع اليأس يتطرق إلى قلبى لحظة واحدة . . وقلت لنفسى إنى عائدة إليك حتما . . وحملت إلى الريح هتافك ودعاءك ، فشد من أزرى وقوى من عزيمتى ، حتى استطعت فى النهاية أن أصل إليك وأرتمى بين ذراعيك .

وضمها إليه بشدة كأنما يخشى أن تفلت منه مرة أخرى .

ومضت لحظة لم يعد يسمع فيها إلا أنفاس تتردد فى سكون الليل .

وأطل القمر من كبد السماء ، فبدد السحب الداكنة وغمر المكان بأشعته الفضية ، فبدا ساحراً خلاباً .. وهدأت الريح إلا من نسمات رطبة رقيقة تمس وجهيهما برفق وحنان .

وتلفتت حولها ، مأخوذة بسحر الليل الساجى والقمر الفضى ، وهتفت به :

ــ هذا الشاطىء العجيب !! ماظننته قط بتلك الروعة وذلك السحر . ليخيل لى إن كل مانحن فيه لايعدو أن يكون حلماً !

وأسرع هو .. فألصق شفتيه بشفتيها وقبلها فى صوت مسموع ، وأجاب ضاحكا :

ــ أما زلت تصرين على أنه حلم !!

ــ إنى ..

ولكنها لم تتم حديثها .. فقد قطعه صوت يصيح بهما فى حدة :

ــ هاى .. أنت .. هناك !!

وتلفتا فى دهشة إلى مصدر الصوت ، فأبصرا شبحاً ضئيل الحجم ، على قمة إحدى الربى المطلة على الشاطىء .. وعاد الصوت يصيح متسائلا :

ــ هل أبصرتما رجلا يحمل على ظهره كيساً ضخما ؟

وأجابته بالنفى .. فأخذ يهبط تجاههما فى خطوات سريعة

حتى وصل إليهما .. وبدا لهما من قرب ، حاد التقاطيع ، متوتر الأعصاب .. يضع على عينيه منظاراً مذهب الإطار . وعاد الرجل يسأل فى نفس اللهجة الحادة الغاضبة :

— أى مكان هذا ؟

وأجابه صاحبها فى لهجة هادئة :

— جزيرة القدر .

— جزيرة القدر؟ !! كفى عبثاً .. لقد كنت فى طريقى إلى « البنك » .. لعن الله هذا الضباب المتراكم .. لقد أضلنى الطريق .. ولكن أين ذهب هذا الأحمق بالكيس ... لعنة الله عليه .

ثم خفف من حدته ، وعاد يقول بلهجة ملؤها التوسل :

— أرجوكما .. إذا ما رأيتماه أن تبلغاه أنى أبحث عنه وأن ينتظرنى هنا بجوار الشاطىء .

وسار الرجل فى خطوات متباطئة .. فاختفى وراء الربوة التى ظهر منها .

وأمسك صاحبها بيدها وضغط عليها برفق وهمس قائلا :

— والآن يا حبيبتى يجب أن نعود .

— نعود .. ولكننا لم نفعل بعد .. ما أتينا من أجله !!

— لقد أخطأنا المكان .. لن نستطيع أن نعقد قراننا

هنا . فإنى لا أبصر سوى قفر فى قفر ، ولا أظن أن هناك مخلوقاً واحداً يعيش هنا .

– أخطأنا المكان ؟ ! ! . . كيف ؟ . . إنى أسمع صوت موسيقى . . أنصت معى . . إنها لا شك موسيقى عرسنا .

– لا . . لا أظن . . إنها خدعة من تمويه الرياح . . أو هدير الأمواج .

وتأبطت ذراعه وبدآ سيرهما على الشاطىء . وقالت وهى تحملق فيما حولها :

– هذا الضباب الكثيف قد كاد يضلنى عنك . . كما أضل الرجل عن صاحبه . . لا أدرى كيف استطعت الحضور . . ولا كيف استطعته أنت . . لقد كان لقاؤنا معجزة . وكان من المحتمل أن يظل أحدنا بمنأى عن الآخر . . ويضيع العمر سدى .

وفجأة أمسكت بذراعه . . وشدت عليه فى فزع وهمست قائلة :

– إنى أرى شبحاً آخر ، يقترب منا . . إنه امرأة !

وانقشعت السحب مرة أخرى فكشف ضوء القمر عن امرأة تقترب فى هدوء وقد بدت عليها سيماء الأناقة ، وكست ملامحها الجميلة أبلغ آيات الحزن ، وسألتهما فى صوت مكتئب :

ـــ ألم تبصرا زوجى ؟

وتملكتها الشفقة بالسيدة الحزينة فأجابتها مطمئنة إياها :

ـــ أجل .. أجل .. إنى أبصرته يختفى وراء تلك الربوة .. لقد سألنا عن رجل يحمل كيساً ...

وهزّت المرأة رأسها فى أسف وقالت :

ـــ لا .. ليس هو .. لقد رأيت ذلك الذى تصفينه .. إنه ليس زوجى .. إنى مخلوقة شقية تعسة .. إنى لن أستطيع العثور عليه .

وغادرتهما السيدة فى صمتها الحزين ، مطأطئة الرأس ، محنية الهامة ، كأنها تحمل عبئاً يثقل كاهلها وينقض ظهرها .

وغاب شبح المرأة فى الظلمة .. وأحست هى بالحزن يسرى فى جوانحها .. وسألت صاحبها :

ـــ ترى أين ذهب زوجها ؟ لقد كان من المحتمل أن أفقدك كما فقدت زوجها ، أما كان يجب علينا أن نساعدها فى البحث عنه .. يجب ألا نتركها هكذا ، إنها امرأة تعسة .

ـــ ولكن كيف ؟ كيف نبحث عنه .. ونحن لا نعرف حتى من يكون ؟

ـــ يجب أن نعاونها بأى طريقة .

وأحست وهى تتحدث بشىء يشبه الغثيان ، وكأن هناك

ما يجذبها إلى الأرض ، وأمسكت بذراعه تتحامل عليه ، ثم أسندت رأسها على صدره ، وعادت تتحدث بصعوبة :

— إن المكان جميل .. رائع .. لم تريد أن نعود .. لم لا نمكث هنا .. إنى متعبة .. وأحس بأطرافى تجمد وتتثاقل .. إنى أخاف الإغماء .

وأحست به يضمها إلى صدره .. وسمعت صوته يهمس فى أذنها :

— لابد أن تعودى يا حبيبتى ، يجب أن تتمالكى ، تعالى معى الآن .. حاولى .

— إنى بخير .. ليس بى شىء .

ولكنها مع ذلك أحست بنفسها تتهاوى إلى الرمال .. وعاد هو يهتف بها :

— انهضى يا حبيبتى .

وحاول أن يرفعها بين يديه .. ولكنها قاومته قائلة :

— لا أستطيع .. ثم إنه ليس هناك داع لهذه العجلة .

وجلس بجوارها وأمسك وجهها يتحسسه برفق وأردفت هى قائلة :

— إن الرمال والموج تبعث فى ذاكرتى أول لقاء .. هل تذكره .. فى الصيف الماضى على شاطىء البحر .. وقد أخذنا نسبح معاً تجاه الصخرة !.

ـ أجل .. أجل .. إنى أذكره .. ولكن لا بد لنا من العودة .

ـ إنى متعبة .. لا أستطيع .

وأحست فجأة بدمعه الساخن يمس صفحة وجهها فنظرت إليه فى دهش ، وهمّت بأن تسأله عما يبكيه ولكنها لمحت شبح المرأة الشقراء الحزينة يمر من بعيد ، وأحست برغبة شديدة فى اللحاق بها كأن هناك شيئاً خفياً يدفعها إليها وأخذت تتحامل على نفسها محاولة النهوض قائلة لصاحبها :

ـ لا بد أن أساعدها .. إنها مريضة .. إنها لا تعرف إلى أين هى ذاهبة .. أجل .. دعنى ألحق بها .

ثم أخذت تعدو تجاه المرأة ، وهو يناديها ، حتى وصلت إليها وهى تسمع نداءه يتردد بين الربى مليئاً بالألم والحزن .

ومست ذراع المرأة ، وقالت لها فى حنان ورفق :

— لقد عدوت وراءك . إنك لا تبدين بخير .. يجب أن تستريحى حتى أبحث لك عن زوجك .

— ما دمت أنا لم أستطع العثور عليه بعد أن بحثت طويلا . . فلن تستطيعى أنت ! . .

— ولكنه لا بد أن يكون هنا ما دمت قد أتيت معه .

— إنى لم آت معه .

وتملكها الدهش . . ولم تعرف ماذا تستطيع أن تفعل للمرأة . . وأحست بحاجتها إلى معونة صاحبها وتلفتت حولها فاذا به على مقربة منها ، ولكنها لم تستطع أن تتميزه بوضوح وعادت تقول للمرأة :

— إذن فقد لا يكون هنا . . لِمَ لا تعودين معنا . . إنى أخشى تثاقل السحب والضباب مرة أخرى . . فلا تعودين تبصرين طريقك ! .

— وما فائدة العودة . . إذا لم أستطع العثور عليه ؟ .

— أرجوك . . أنت مريضة ، يجب أن تعودى معنا .

ــ لا . . لا . . إنك لا تعرفين جلية الأمر . كم وددت لو أكون مثلك .

ـ مثلى أنا ؟ ! إنى لا شىء . . أنا لا أملك من حطام الدنيا . . إلا هو . . وحبه .

ــ وذلك هو ما أحسدك عليه . . هل هناك فى حياتنا أثمن من الحب . . إنى لم أحس ما يعنيه زوجى بالنسبة إلىّ حتى حدث ما حدث . . لقد كنت الليلة أوشك أن أفر مع رجل آخر . . ولقد فقدته فى ذلك الضباب المخيم ، وأحسست بفرط الوحدة ، والوحشة ، والحنين إلى زوجى المحبوب . . ولكنى لا أستطيع أن أجده .

وأصابها عجب زائد من قول المرأة .

إذن فهذا هو سر المرأة الحزينة التعسة . . مسكينة .. لقد أضلها الشيطان فأضاعت زوجها . . وفكرت برهة ثم وجهت الحديث إليها قائلة :

ــ يا سيدتى إنى أرثى لك ، يجب أن تعودى معنا سريعاً فقد تهيىء لك العودة فرصة استرجاع زوجك ؟

ــ لا فائدة . . مادام لم يعد إلىّ . . فلا أظننى قد أصبحت أعنى شيئاً لديه . . لقد تبدد حبى من قلبه . . إنى أستحق كل

ما حدث .. لقد كنت أنانية حمقاء .. ما حاولت قط أن أحتفظ بحبه لى .

وأخفت المرأة وجهها فى راحتيها الرقيقتين .. واستغرقت فى البكاء .. وأخذت هى تهدىء من روعها .. قائلة فى رقة واستعطاف :

ـ لا تبكى .. إنه سيعود إليك .. ما دمت تحبينه .. وتؤمنين بحبه .

وأحست برغبة جارفة فى أن تغرس فى نفسها بذور الإخلاص وتبث الوفاء ، وأدركت أن ذلك هو الدافع الخفى الذى دفعها إلى أن تتبع المرأة التعسة .. ولكنها أحست ، وهى تمسك بذراعها وتحاول أن تجد كلمات التشجيع التى تعينها بها ، أن ذلك الإحساس بالغثيان قد عاودها وبدا لها ـ وهى تتلهف على معونة المرأة ـ كأن هناك تياراً خفياً يوشك أن يجرفهما معاً فينزعها عن صاحبها .

واستطاعت أن تتمالك وتوجه الحديث للمرأة قائلة :

ـ قولى له إنك تحبينه .. قوليها من قلبك .. حتى تصل إلى قلبه .. وأجزم لك أنه سيسمعك ويعود إليك .

وساد الصمت .. وأحست كأن التيار قد جرفها فعلا ولم تعد تستطيع السيطرة على حواسها ، وتملكتها رجفة سرت

من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وأحست أنها تتهاوى .. لا إلى الأرض .. بل إلى أعماق بعيدة الغور .. لا قرار لها .. وخيل لها كأنها تسمع طرقات تدوى من بعيد ، وأخيراً استطاعت أن تميز صوت صاحبها يناديها فى خفوت .

وأجابت بصوت مبحوح متحشرج :

— إنى آتية . . إنى آتية .

ثم ساد سكون عميق . ولم تعد تشعر بما حولها . . لقد فقدته تماماً . . كما فقدت المرأة زوجها .

* * *

وعند ما أفاقت وجدت رأسها تستند على صدره ووجدته يتحسس جبينها بحنان . . ثم تلفتت حولها فلمحت وجه امرأة عجوز تبسم لها فى رفق وتقول :

— أنت الآن أحسن . . قليل من الجهد . . ونستطيع أن نعود بك إلى شاطىء النجاة .

واختفت العجوز . . وسارت هى متكئة على ذراعه حتى وصلا إلى قارب يرسو على الشاطىء . . وكان أول ما لفت نظرها ذلك الرجل العجوز ، ذا المنظار المذهب ، وقد وقف فوق الربوة يحمل على ظهره كيساً ضخماً يثقل كاهله ، ويكاد ينوء تحت حمله .

ولوّحت له بيدها ،
مشيرة له أن يهبط ليعود
معهما فى القارب
وصاحت به :

– أين صاحبك
الذى كان يحمل الكيس ؟

– لم أجده . .
ولكنى وجدت
الكيس ! .

– ألا تريد أن ترحل معنا ؟

– لا بد أن أصطحب الكيس معى .

– ولكننا لا نستطيع أخذه . . إنه قد يغرق القارب ويغرقنا معه .

– لا أستطيع الرحيل بدونه . . إنه حياتى . . إنه أموالى التى أنفقت فى جمعها عمرى .

وكان قد وصل إليهما فى تلك اللحظة ، وقد تساقط عرقه وتلاحقت أنفاسه تحت وطأة الكيس . . ونظرت هى إليه باسمة ، وقالت فى صوتها الحالم :

– حياتك أفضل من الكيس . . إن على الأرض من

الجمال والحب ما يعوضك عن كل ما فيه .. إنه ينقض ظهرك ويشقى حياتك .. تعال معنا .. والق به فى اليم ، أو بعثره على الربى .. إنك لن تستطيع أن تبتاع به شروق شمس ، أو حب قلب .

ولم يتردد الرجل لحظة واحدة .. بل سار إلى اليم بخطى ثابتة ، فألقى فيه بالكيس ، وقفز إلى القارب فى خفة الشباب وهو يقول لها :

ــ شكراً .. لقد أتحت لى فرصة النجاة .. كنت فى صباى أعبث فى مكان جميل كهذه الجزيرة .. كنت أحب الطبيعة ، وأحب الشعر .. ولكنى غادرتها فى يوم ولم أعد إليها .. لقد شغلتنى عنها الحياة وجمع المال .. خمس وعشرون عاماً .. وأنا أشبه بحمار فى ساقية أدور فيها معصوب العينين ، لا أبصر مما حولى شيئا .

لقد أزلت الغشاوة عن عينى . إنى الآن أستطيع أن أرى الكثير مما لم أبصره من قبل .. أرى الجمال والحب والحياة .

وصمت الرجل ، وفجأة لاح شبح يقبل من فوق الربوة واستطاعت أن تتبين فيه المرأة الشقراء وهى تتحرك كالهائمة الضالة .. فهتفت بها من أعماق قلبها . وسمعت المرأة النداء ،

وأخذت تقترب من القارب رويداً رويداً حتى وقفت بجواره شاردة الذهن . . فصاحت بها :

— هيا . . أقسم لك أنك ستجدينه . . ما دمت تحبينه . . إن العثور عليه لا يحتاج إلا لحب وإيمان .

وقفزت المرأة إلى القارب .

* * *

وسار القارب فى هدوء ، وأسندت رأسها إلى صدره .

ولاحت أمامها بارقة مضيئة فى وسط الظلمة بدت فى أول الأمر كأنها فنار فى وسط البحر . . ثم أخذت تحدق فيها فإذا بها مصباح كهربائى . . وتلتفتت حولها فإذا بها ترقد على فراش فى حجرة وقد أمسك صاحبها يدها فاحتواها بين كفيه وسألته فى دهشة :

— أين القارب الذى كنا به ؟ .

وأجابها فى بسمة رقيقة :

— لقد رسا بنا على شاطىء النجاة .

وحاولت أن تتقلب على جانبها فأحست بوخز فى ظهرها جعلها تتأوه .

ثم أبصرت ممرضة قد اتشحت بلباسها الأبيض تقبل عليها فتضع يدها على رأسها وتقول لها :

ـ أرجوك . . لا تتحركى . . إن الصدمة لا شك تؤلم ظهرك . . ولكن الحمى قد زالت والحمد لله .

وهزّت رأسها ونظرت إليه متسائلة فى دهش :

ـ أية صدمة ؟ إنى لا أذكر شيئاً مما حدث .

ـ ألا تذكرين أن الليلة موعد زواجنا ؟ لقد كنا نتنزه فى عربتى فى الجزيرة قبل أن نذهب إلى البيت حيث أعدوا العدة لعقد قراننا ، ولكن العربة تصادمت مع عربة أخرى فى منحنى الطريق بجوار النادى الأهلى . . الحمد لله لقد زال الخطر .

ـ ولكنى أذكر أننا كنا فى قارب .

ـ لا شك إنه كان حلماً .

ـ ولكنك كنت معى دائماً فى كل لحظة من لحظات الحلم .

ـ أحقاً كنت معك ؟ . لقد جاهدت لكى أكون معك فعلا حتى أعيدك إلىّ .

ـ إنى لا أستطيع أن أتصور الحياة بدونك . إنك حياتى .

وتسللت الممرضة إلى الخارج ووقفت تتحدث مع ممرضة أخرى خرجت من الحجرة المجاورة . فسألتها الأخيرة :

ـ كيف حال مريضتك ؟

ـ لقد نجت . . إن الفضل له . . فهو لم يتركها لحظة واحدة . يبدو لى إنه هو الذى استطاع بفرط إيمانه وإخلاصه أن يعيد إليها الحياة . . وأنت كيف حال مريضتك ؟

ـ لقد مضت عليها بضع ساعات وهى مستغرقة فى هذيانها . . لا تكف عن مناداة زوجها حتى حضر أخيراً . وقد تحسنت بعد ذلك كثيراً .

ـ أحقاً أنها كانت فى العربة الأخرى مع الرجل المليونير ؟

ـ من يدرى؟ قد تكون أصيبت هى وسائرة فى الطريق . . إن بعض الظن إثم ، وليس هناك من شاهد الحادث حتى يستطيع أن يجزم أين كانت .

ـ والرجل كيف حاله ؟ .

ـ كالجن الأزرق . . إن إصابته خفيفة . . وهو يضحك فى مرح ويتحدث عن الحب والجمال ، وقد وهب المستشفى بضعة آلاف من الجنيهات . . ويقول إن الغشاوة قد أزيلت عن عينيه . . وإنه يستطيع أن يرى الكثير مما لم يبصره من قبل .

نجوى فراش

خير للانسان أن يحب يوماً
ويموت بعده ، من أن يعيش
دهراً دون أن يطرق الحب قلبه .

التاسعة مساء . . وقد صفت العربات الفخمة

الساعة صفاً طويلا أمام قصر المرحوم على باشا عبد الرحيم الكائن بضاحية الزيتون . . .

كانت ليلة حافلة . . والقصر الكبير قد أخذ يزخر بما فيه . . وبدا كأنه قد بعث من العدم . . وأنيرت أرجاؤه بعد طول ظلمة . . فقد رغبت الأم العجوز فى أن تحتفى بـ « سناء » خطيبة ابنها « يحي » التى اختارتها له ، والتى كانت تفضلها على غيرها من الفتيات . . لكمال عقلها ، ورقة خلقها .

وكان البيت أحد تلك القصور الشامخة العتيقة الواسعة الأرجاء ، الكثيرة السراديب ، الفسيحة الحجرات ، التى يحوى كل ركن فيها آية من آيات الفن ، ومثلا من أمثلة الغنى والثراء .

وكان صوت الموسيقى يصل خافتاً إلى إذن الفتى الذى اضطجع فى عزلة عن الجمع فوق أحد المقاعد الطويلة وقد بدأ يحتسى الكأس الثانى من «الشيرى» وأخذ خياله يسبح بعيداً فى ظلمات الماضى وآمال المستقبل .

وأخذ يتمطى فى كسل . . عندما هبت عليه رائحة عطر نفاذة ، من ذلك النوع الذى يخترق الأنف ، ثم يسرى منه إلى بقية الجسد . فإذا بالإنسان قد أصابته نشوة وعرته هزة .

وتلفت حوله ليرى صاحبة العطر .. لأنه لم يشك فى أنها أنثى .. لأن العطر يكاد ينطق ليفسر عن نوع صاحبته . نعم كان يكاد يصيح : افسحوا الطريق .. لامرأة رقيقة كنسيم الليل .. جميلة كأوهام الشاعر ، وأحلام الفنان .

ولكنه .. لدهشته .. لم ير ما يتبع الرائحة .. لقد نفذ العطر إلى نَفَسِه .. ولكن صاحبة العطر لم يكن لها وجود بعد .

ونهض من مقعده ، وتوجه إلى أقصى الغرفة الفسيحة كأنها ملعب كرة ، فإذا بفتاة قد توكأت بذراعها على مكتبه الذى رصت فوقه بعض الكتب . وأخذت تقرأ فى أحدها .

أُخذ الفتى بمنظر الفتاة ، فقد كانت غريبة عن البيت .. غريبة عن تلك الجماعة التى اكتظت بهم الحجرات . وتعجب الفتى ، فهو لم يرها فى خلال يومه إلا الآن .. بل لم يرها فى حياته قط إلا هذه اللحظة .

ومما زاد فى دهشته أن الفتاة على رشاقتها وجمالها ، وصغر سنها ، كانت ترتدى من الملابس مالم يره الفتى من قبل إلا فى تلك الصور الزيتية التى تملأ جدران البيت ، والتى تمثل آباءه وأجداده من قرون مضت .

وابتسمت الفتاة ، وقد ظهرت على وجهها سيماء الهدوء

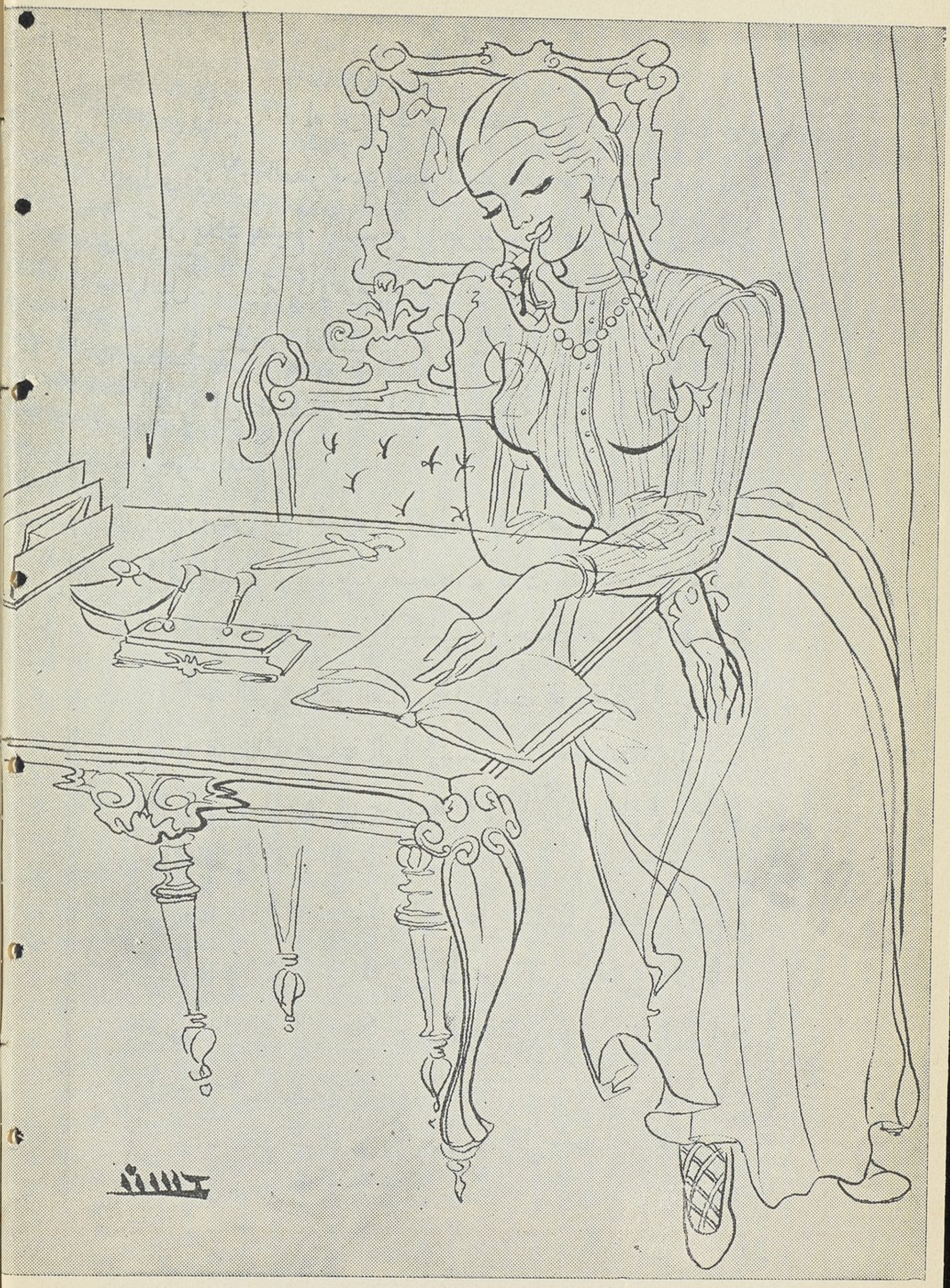

والسكينة ، ولم تكن تبدو عليها أى علامة للدهشة كما بدا على صاحبنا . وكان مظهرها مظهر من تتجول فى عقر دارها . وكأنها رأت الفتى قبل ذلك مئات المرات .

وخيّل للفتى .. أنها إحدى صديقات ضيوفه . وأن بعقلها بعض الشذوذ . ولكنه ما كاد يحقق فى جسمها حتى صعق .

لقد كانت الفتاة شفافة .

لقد كان يرى كل شيء خلفها بوضوح .. كأن جسمها قد صنع من الزجاج . فقد رأى خلال جسمها الكتب التى رصت على المكتب ، ورأى المكتب نفسه وقد بدت تفاصيله واضحة جلية .

وسقط من يده الكأس ، وصدرت منه صرخة خافتة .

لقد سمع قبل ذلك إشاعات من أشباح تجوس خلال الدار . ولكنه لم يصدقها قط . وسخر منها أشد السخرية . وحتى لو كان قد تخيّل أحياناً أن هناك أشباحاً ، فإنه قد تخيل أنها تجوس خلال الأقبية الرطبة المظلمة ، والسراديب الضيقة فى أسفل المنزل التى ملأتها العفونة . أما أن تظهر هذه الأشباح فى حجرة المطالعة . والبيت قد غصّ بالزوار . والموسيقى ترسل أنغامها فى أرجائه . فذلك ما لم يخطر له قط على بال .

وفوق ذلك لم يكن صاحبنا يتخيّل هذه الأشباح

والعفاريت إلا فى صور بشعة لسفاكى الدماء الغلاظ الأكباد، القساة القلوب . أما أن تظهر تلك الأشباح فى صورة فتاة، فتانة فتاكة فى عينيها سحر ، وفى شفتيها خمر . . فذلك هو مالم يتصوره من قبل .

وكأنما سرّ الفتاة ارتباك الفتى ، فرنت بضحكة كموسيقى عذبة حلوة . . وأفاق الفتى لنفسه، واسترد شجاعته ، وساءه أن يكون موضع سخرية من الفتاة حتى ولو كانت شبحاً أوعفريتا . . ووجد أن الفتاة عزلاء، كما تتراءى له ، لن تملك له ضراً ، حتى ولو كانت جنية . فهو جدير بسحقها بين أصابعه كفتات العيش ، لو حاولت أن تناله بأذى .

وأمكن للفتى بعد أن طمأن نفسه وتمالك أعصابه . . أن يرد على ضحكة الفتاة ، بضحكة ملؤها السخرية سائلا إياها :

ــ من تكون الزائرة الكريمة ؟ . وما سبب تشريفنا بهذه الزيارة .

ــ تقصد الزيارات ؟ . فما كانت هذه أول زيارة ولن تكون آخرها .

ــ سيان عندى : كانت زيارة أم زيارات . . إنما يهمنى هو أن أعرف من تكونين : وماذا تبغين ؟

ــ أما سؤالك عمن أكون ، فهو اتهام صريح لذكائك

وفطنتك ، وتأكيد لضعف ذاكرتك ، لأنك لاشك قد رأيتني مراراً في عدة صور من تلك الصور المعلقة في صالة الاستقبال ، فقد ظهرت في بعضها وحيدة ، وفي البعض الآخر مع بقية العـائلة . وعلى أية حال يمكننا أن نعتبر أنفسنا «أولاد عم» .
أما سؤالك عما أريد : فذاك سؤال في موضعه ، والواقع أني جئت لأحذرك .

وسأل الفتى في دهشة :

— تحذريني ؟ أنا . وممن تحذريني ؟!

— من الفتاة التي ستتزوجها . . إني أود أن أنصحك ألا تتزوجها . وأصر على نصيحتي .

— ولـكن ما السبب والحب بيننا متبادل والفتاة جميـلة الخلق والخلق ، ولا عيب بها ، إلا إذا كنت تودين الوقيعة بيننا ، وتنوين افتراء الأكاذيب واختلاق الأراجيف . وعلى أية حال قولي فيها ماشئت ، فلن يضيرها ذلك شيئاً ، لأني أحبها وسأتزوجها بالرغم من كل شيء .

فضحكت الفتاة ضحكة ناعمة ثم أجابت :

— لا أكاذيب هنالك ، ولا أراجيف . لاتـكن أبلهاً . إني أحذرك من الزواج بالفتاة . لا لشيء إلا لأنك لاتحبها .

ولم يتمالك نفسه من القهقهة في سخرية .

هذه الفتـاة الصغيرة . . بل هذا الشبح الزجاجى العتيق . . تتنبئه عن دخائل قلبه كأنها تعرفه أكثر مما يعرفه . . هذه الفتاة تدعى أنها تعرف إذا كان يحب أو لا يحب أكثر مما يعرف هو عن نفسه .

— خير لك يابنية أن تـكفى نفسك مشقة التدخل فى شئون الغير . . وأن تضيعى وقتك فى شىء أفضل من التنبؤ بما إذا ما كنت أحب أو لا أحب .

ونظرت الفتاة إليه نظرة شملته من أخمص قدميه إلى أم رأسه ، وقالت بلهجة من ينصح طفلا غريراً بالـكف عن لعبة ضارة :

— هذه الفتاة الباردة التافهة . . ماذا يحببك فيها ؟ هذه الفتاة الشبيهة بالتماثيل الجبس التى يصنعها مثال مبتدىء .

وبدأ الغضب يلوح على وجه الفتى . . فحاول تهدئة نفسه بإشعال سـيجارة . . وحاول أن يظهر للفتـاة قلة اكترائه بأحاديثها :

— هل تسمحين لى بالتدخين ؟

— لا شك فى أننى أسمح . . فإنى أحب التدخين .

وصمتت برهة ثم أردفت :

— كم كنت أتمنى أن يـكون التدخين مباح للسيدات

فى عصرنا ، كما هو مباح فى عصركم .. إنى ما زلت أذكر كيف حرمت من الطعام يوماً بأكمله عقاباً لى على محاولتى التدخين وأنا فى الثامنة من عمرى .. ولكننا خرجنا عن حديثنا الأصلى .. لعلك مقتنع الآن بأن الخطأ كل الخطأ فى زواجك بتلك الفتاة الجوفاء ، الخالية من كل شعور ، العاطلة من كل إحساس .. إنى لأتخيل صاحبتك وقد تسللت بها إلى ركن بالحديقة ساكن ، إلا من أنفاس الهوى الصادرة من الأوراق الرقيقة الخضراء يحركها النسيم الهادىء ، فكأن كل منها قلب صَبٍّ مُدَلَّهٍ . وضوء القمر قد تحرر من وراء الغيم .

وأنت قد ملأ الهوى قلبك وترنحت من العشق أعطافك وبدأت تطارحها الغرام . وهى .. هى .. آه منها .

ووجد الفتى نفسه قد جذب إلى حديث الفتاة ، وشعر كأنه فعلا فى ذلك الموقف الشاعرى الجميل .. وإذا به يسألها دون قصد :

ـــ هى ؟ .. مالها ؟ .

ـــ هى أمامك كقطعة من اللحم البارد الذى تسمونه « البلوبيف » ، لا يحرك قلبها ساكناً ، بل أغلب ظنى أنها لا تحمل فى صدرها قلباً البتة ، وقد تطلعت إليك بوجهها اللاشعورى ، فإذا بقصورك الشم قد انهارت من عليائها ..

وإذا بالموقف قد فقد سحره ، وإذا بك تهبط من السماء الزرقاء الجميلة لتصدم بالأرض الصخرية السوداء ، فتتحطم أمانيك ، وتذهب أحلامك أدراج الرياح .

وشعر الفتى كأنما قد سقط فعلا . . وأحنقه أن الفتاة تتلاعب به مثل هذا التلاعب فصاح بها غاضباً :

— لقد أضعت وقتى فى الاستماع إلى ترهاتك .. فأرجو أن تكفى عن زيارتى بعد الآن ، فنصيحتك لن تجد معى نفعاً وأفضل لك أن تكفى نفسك مؤونة تحذيرى .

وهزّت الفتاة رأسها آسفة وقالت :

— أنت وشأنك ، ولكن ثق أننى لن أتركك تتردى فى هاوية زواج بلا حب . . أنت أبله . . لأنك لم تذق طعم الحب . . هذا الذى تدعيه حباً . . لا يمت للحب بصلة .

واختفت من أمامه فجأة كما ظهرت . . تاركة له عبق أريجها يملأ خياشيمه .

وغادر الفتى الغرفة إلى حيث القوم قد جلسوا للمسامرة والرقص . وفى العشاء جلس الفتى فى مكانه ساهماً واجماً . . ورأسه ملىء بالتفكير فى هذا الشبح الرقيق الجميل .. وفيما قالت له الفتاة من نصح وتحذير . . وشعر أنه فى حاجة إلى أن يفضى إلى امرىء ما بدخيلة قلبه . . ويقص عليه القصة

من أولها إلى آخرها، ولكنه خشى أن يسخر منه القوم ويظنون نه قد ثمل.. وظل يستعرض فى مخيلته الأشخاص الذين يثق بهم، فلم يجد هناك من يفضى إليه بالأمر خيراً من أمه.

وانتهى العشاء.. وصاحبنا ما زال فى وجومه وقلقه، وأخذ يتذكر ما قالته له الفتاة حرفاً حرفاً.. وعند ما تذكر تشبيهها خطيبته «بالبلوبيف» لم يتمالك نفسه من الضحك.

ونظرت إليه خطيبته فى دهشة وقالت:

— هذه أول ضحكة تضحكها الليلة.. فلعل ما طاف برأسك يبقيك على مرحك بقية الليلة.. فلا تعود إلى وجومك السابق.

وفجأة نهض الفتى وتوجه إلى الفتاة وجذبها من ذراعها، وقال للجميع:

— عن إذنكم.. سأسرّ لها حديثاً يهمها بعض الشىء.

ودهشت الفتاة، كما دهش القوم، ولكن الفتى لم يأبه لهم.. بل اندفع إلى الحديقة كمن انتوى أمراً جللا..

وفى ركن تشابكت فيه الأغصان.. ركن أشبه بذلك الركن الذى وصفه الشبح فى حديثه... وقف الاثنان وقد غمرهما ضوء القمر وتشبع جو المكان بالسحر والفتنة..

ونظر الفتى فى وجه صاحبته وقد تملكه الحب .. وسرت فى جسمه النشوة .. ثم قال هامساً :

— ما رأيك فى أن نهرب سوياً فى عربتى إلى الاسكندرية حيث يتم زواجنا ، ونرشف معاً كؤوس الحب فى مكان يملؤه الشعر والخيال .

ومد يده فلف الفتاة وجذبها نحو صدره وقبلها فى شوق .

ولكن الفتاة دفعته بيديها ، وتخلصت من ذراعيه ، وردت عليه غاضبة :

— أى جنون قد أصابك .. وأى سخافات تلك التى تحدثنى عنها .. أى هرب هذا الذى تريده .. وماذا يقول الناس عنا .. بل ماذا يقول أبى وأنت أدرى الناس .. أى نوع من الرجال هو .. ثم تخيل أن العربة تقف منا فى الطريق .. فأى مشكلة تكون قد ألقينا بأنفسنا فيها .. وهل هذا هو الأمر الهام الذى جذبتنى من وسط القوم وتركتهم يتحدثون عنا فى سخرية .

ووجد الفتى أن السحر قد ذهب ، والفتنة قد زالت .. وخبا لهيب قلبه ، ونظر إلى صاحبته فإذا هى جافة باردة .

وفجأة تذكر « البلوبيف » .. وشعر لشدة الحنق على الفتاة

الزجاجية الشفافة . . وأحس كأنه يرمى بآخر سهم فى جعبته ، فبدأ يرجو صاحبته :

— إذا كنت تعتقدين أن الفرار جنون . . فدعينا منه . . ولكن هل لديك مانع فى التعجيل بالزواج . . وليكن فى الأسبوع القادم مثلا ؟ . أرجوك ألا ترفضى .

— لا أدرى ماذا أصابك الليلة ؟ . . من المستحيل أن يتم الزواج فى الأسبوع القادم . . ولا حتى فى الشهر القادم . . فأنت تعلم أن الملابس . . و « الجهاز » لن يتم صنعهما إلا بعد شهرين أو أكثر . . ولن يقبل أبى التعجيل بالزواج قط قبل أن تتم هذه الأشياء . . خصوصاً أنه لا سبب للتعجيل .

وعاد الاثنان من الحديقة وافترقا وسط الجموع الراقصة .

وشعر الفتى بميل يدفعه إلى الذهاب إلى حجرة المكتبة مرة أخرى ، وجلس فى نفس المقعد ، وتمنى لو ظهر الشبح الجميل ثانية .

ولم تمض لحظة . . حتى هبت عليه رائحة العطر إياه . . وإذا بالفتاة الشفافة أمامه وقد بدت آية فى الرشاقة والجمال . . واستندت بمرفقها إلى المنضدة ثم ضحكت فى لين . . وقالت :

— لقد فشلت التجربة . . وكنت أعلم سلفاً أنها فاشلة . . يا صاحبى إن الحياة هى الحب . . ولا شىء غير ذلك . .

فإن فقدت الحب فإنك قد فقدت الحياة .. واذا عشت بغير حب فكأنك لم تعش .. وخير للانسان أن يحب يوما ويموت بعده ، من أن يعيش دهراً دون أن يطرق الحب قلبه .. أنا أدرى بالحب منك .. فلقد مسنى الحب وأنا فى الخامسة عشرة وكأن يد ساحر قد مستنى .. وإذا بحياتى قد انقلبت من قطعة فحم سوداء .. إلى جمرة حمراء ملتهبة .. فى جوفها ضوء وحولها ضوء .. وكان الذى أحببت لم يزد على أن يكون كاتبا بسيطاً فى دائرة أبى .. ولكنى كنت إذ أراه كأنى قد ملكت الدنيا والآخرة وفررت معه ولكنهم أمسكونى ووضعونى حبيسة فى الدار .. وعوملت ، كما يعامل أشد الناس إجراما .. ثم انتقوا لى زوجا .. ظناً منهم أن ذلك سيذهب عنى ماظنوه طيشاً ونزقا .. وفى ليلة الزفاف كنت أشعر كأنى أزف إلى القبر. لقد كنت حزينة يائسة .. كنت أتمنى الموت ولكنى

لا أستطيعه، فقد كنت أعامل كأننى أسيرة حرب، ولكنى أخيراً استطعت أن أخلو لنفسى بضع لحظات تناولت فيها سما.. وفررت من الزفاف ومن الحياة.

وصمتت لحظة، ثم أردفت فى صوت ملؤه الاحتقار والازدراء:

ـ أنت تتزوج هذه الفتاة.. ياللسخافة.. إياك أن تقدم على ذلك الزواج.. إياك أن تلقى بنفسك إلى التهلكة.. مع الفتاة التافهة السخيفة.

وقاطعها الفتى غاضباً:

ـ كفى عن هذا السب.. فسأتزوجها بالرغم من كل هذا.. ولن تزيدنى إهانتك لها إلا تعلقاً بها.

ولم تأبه الفتاة لمقاطعته:

ـ أنت الفتى الأمثل.. الفتى الجميل النبيل.. تتزوج هذه الأضحوكة.. كم يسوؤنى أننا لم نلتق فى عصر واحد.. كم كنت أود لو خلقنا سوياً.. بدلا من أن يكون بين أحدنا والآخر هذه الحقبة الطويلة من الزمن.. كم كنت أتمنى أن نلتقى جسداً بجسد، لا جسداً بروح.. أو شبح.

وشعر الفتى أن الفتاة تقترب منه.. ثم أحس شيئاً خفيفاً قد مس شفتيه.. كأنه جناح فراش.. ثم اختفت الفتاة.

وانتهى القوم من سهرتهم وآب كل منهم إلى فراشه، ودخل الفتى مضجعه .. وشبح الفتاة لا يفارق ذاكرته .. وخيل إليه أنه قد يراها فى مضجعه .. ولكنه لم ير أحداً .

وماكاد الفتى يغمض عينيه حتى سمع على الباب طرقاً خفيفاً .. فقفز من فراشه وفتح الباب وهو لا يشك لحظة فى أن الطارق هو الفتاة العاشقة .. الساخرة الفاتنة .

ولكن الطارق لم يكن سوى خطيبته تسأله إذا كان لديه قرص من « الاسبرين » تذهب به عن رأسها صداعاً أصابها .

وأجابها الفتى بالإيجاب .. ولكنه وجد وجهها قد تغير فجأة وكساه احمرار الغضب .. فذهل وسألها عما بها فأجابته صارخة :

— تسألنى عما بى .. وفى فراشك امرأة .. هل رأى أحد أوقح منك مخلوقاً .. إنى لا أكاد أصدق عينىّ .

وكانت الفتاة تتكلم وهى تهتز من الغضب .. وصعق الفتى وأجاب فى دهشة :

— امرأة .. ماذا تعنين ؟

وتلفت حوله فإذا بالفتاة الجميلة الشفافة قد استلقت فى فراشه فى نوم عميق هادىء وبدت كأنها عروس فى ليلة زفافها . وتعجب الفتى ، فإنه عندما قام من فراشه ليفتح الباب كان فراشه خاليا .

وأدرك الفتى أن الفتاة العابثة الماجنة قد أوقعته فى مشكلة كبرى .

وتلفت إلى خطيبته وهو يكاد يجن وقال :

— إنها ليست امرأة ؟ .. إنها ليست بحقيقة ؟ هى لا تزيد عن أن تكون شبحاً .. تقدمى وامسكيها بيديك إن كنت تستطيعين .. إنها لا شىء ..

ولكن الفتاة كان قد غلبها البكاء .. فنظرت إليه نظرة بغض ويأس وقالت ساخرة :

— وماذا يمكنك أن تعتذر به غير ذلك .. نعم .. إنها شبح .

وعاد الفتى الى الفراش وهجم على الفتاة المستلقية به .. يود لو يمزقها إرباً .. ولكنها كانت قد اختفت .

وعلم الفتى أن من المحال أن ينتظر من القوم أن يصدقوا الحقيقة .

وفى الصباح تسلل من البيت قبل أن تهب عليه الزوبعة . وقبل أن يغادر الدار طرق أذنه صوت بكاء خطيبته وبكاء أمه .

* * *

وغاب الفتى عن بيته ثلاثة شهور .. علم خلالها أن خطيبته قد تزوجت .. وتوسلت له أمه أن يعود إلى البيت فعاد .

ومرت الأيام ومحا الزمن القصة شيئاً فشيئاً .. فنساها

القوم .. ولكن الفتى لن ينس قط شبح الفتاة الساخرة ..

وفى يوم من الأيام زارهم أحد أقاربهم البعيدين ، وكانت معه ابنته ، ورجا من الأم أن تنزل فتاته عندها حتى تتم دراستها فى أحد معاهد الفنون ، فأنزلتها الأم على الرحب والسعة .

ولم يمض أسبوعان على مجىء الفتاة حتى كان الزواج قد تم بينها وبين صاحبنا .. فقد جرفه حبها فلم يستطع عليها صبراً .. لقد قلب حياته من فحمة إلى جمرة كما قال الشبح .

وأعجب ما فى الأمر أن الفتاة كانت كثيرة الميل إلى ارتداء ذلك النوع من الملابس الذى كانت ترتديه الفتيات منذ قرون مضت .. ذلك النوع الذى كان الشبح يرتديه .

ومانظر إليها الفتى قط إلا وتعجب من شدة شبهها بالفتاة الشفافة .. حتى أنه كان كثيراً مايحتضنها لا لشىء إلا ليتأكد من أنها حقيقة .

وفى ذات يوم كان والد الفتاة يشاهد الصور الزيتية المعلقة فى صالة الاستقبال ، فاستوقفت نظره إحدى الصور .. ثم نادى الفتى وقال له ضاحكا وهو يشير إلى الصورة :

— هذه هى صورة جدتى .. ألا ترى أنها شديدة الشبه بزوجتك ؟

وحملق الفتى فى الصورة فقد كانت لنفس الشبح الجميل الذى زاره مرات عديدة والذى منعه من الزواج من خطيبته الأولى .

صورة وجه

بدا لى أنها قد عزمت على شيء ..
فقد أشارت إليّ بالاقتراب منها وقالت
فى صوت ملؤه الثقة والحزم: إياك أن
تعدل عن البناء ، واذكر جيداً أننا
عند ما نلتقى في الآخرة سأسألك
عن كل ما فعلت .

صاحبى قال :

حدثنى كان ذلك على ما أذكر فى سنة ١٩٣٦ . .

وكنت أقطن حينذاك فى إحدى الضواحى . .

وكنت أهوى التصوير . . وخرجت ذات يوم لألتقط بعض الصور .. فساقتنى قدماى إلى جهة نائية على شاطىء النهر ، وجدت بها بضعة رجال يحفرون فى بقعة من الأرض قد خططت كأن هناك شروعاً فى إقامة بناء عليها . . ووجدت كهلا قد انتحى ناحية من المكان جلس على حجر وهو يرقب الرجال الذين أخذت معاولهم فى الارتفاع والهبوط .

وألقيت التحية . . فألقى الرجال معاولهم وردوا بأحسن منها . . ولكن الكهل لم يجب بكلمة . . بل لم يبد عليه أنه قد أحس وجودى . . وأعجب من ذاك أننى أبصرت شفتيه تغلقان وتفتحان ، وسمعت منه همساً خفيفاً .

وعلمت من أحد الرجال أن الكهل هو صاحب قطعة الأرض التى يحفرون فيها أساساً لبيت . . وأنه دائم التحدث إلى نفسه . . وأن حديثه إلى نفسه يشغله كثيراً عن الالتفات إلى غيره . . وأنه يقضى يومه جالساً على الحجر يرقبهم ، وقد شرد ذهنه وأخذ يتمتم لنفسه بين حين وآخر بكلمات غير مفهومة .

ونظرت إلى الرجل فوجدته أقرب ما يكون إلى أولئك الذين تراهم يحملون المجامر أمام الجنازات .. بتلك البذلة الحائلة اللون ، البالية النسيج .. التى ضمت فى حناياها جسداً ضامراً ذاوياً .. من ذلك النوع الذى قيل فيه « لو توكأت عليه لانهدم » أما طربوشه فقد انزلق من على رأسه وارتكز على أذنيه .. إذ لم يعترف برأسه كقاعدة فجاوزها إلى أقرب مستقر .. وبدت عيناه غائرتين ذابلتين استبدل فيهما بالبياض صفرة مشوبة بحمرة .. وتهدل شاربه الأشيب فغطى تجاعيد فمه .

وعدت إلى الدار وكدت أنسى الرجل حتى حملتنى قدماى مرة أخرى بعد بضعة أيام إلى نفس المكان ، فوجدت الرجال قد بدأوا فى البناء .. وبحثت عن الرجل فى الموضع الذى رأيته فيه فى المرة السابقة ، فلم أجده .. فيممت وجهى شطر الشاطىء ووقفت أرقب النهر وقد انعكست عليه أشعة الشمس فبدا منه بريق ذهبي عجيب .. وأغرتنى الوحدة والسكون بإطالة التأمل .. حتى سمعت فجأة صوتاً يتحدث .. فأُخذت من الصوت إذ كنت أظن أنى وحيد فى ذلك المكان وتلفت يمنة ويسرة ، فإذا بى ألمح الرجل الكهل وقد اتكأ بظهره على شجرة ضخمة أخفت جسده الضامر عن عينى ..

وسبح هو الآخر ببصره فى النهر وبدأ يحدث نفسه كما كان يفعل فى المرة السابقة .. ولكن صوته فى هذه المرة كان جلياً واضحاً ، وكان يبدو كأنه قد اشتبك فى جدال .. واستطعت أن أميز صوته بسهولة وهو يقول فى شيء من الحدة :

– ولكننى قلت لك إنى لا يمكنى الاستمرار فى هذا العمل المضنى ! !

وران السكون برهة كأن هناك شخصاً خفياً يحاوره .. ثم سمعته يقول :

– أجل .. ولكن استمعى إلىّ .

ثم خافت الرجل من صوته حتى لم أعد أسمعه ، وبدا لى من حركاته أنه يحاول إقناع من لاتريد أن تقتنع . وشعرت بغيظ شديد .. ووجدتنى أهم بأن أصيح بالرجل أن يرفع صوته ، لولا أننى رأيته وقد شاع فى وجهه الغضب وأبصرته يدفع رقبته المعرورقة إلى الأمام ويقول حانقاً :

– لن أستمع إليك بعد الآن .. كفانى ما مضى .

ومضت فترة صمت قصيرة .. ورأيت غضب الرجل ينفثىء فجأة ، وأبصرت رأسه يسقط على صدره كأنه طفل نادم مستغفر . ثم سمعته يغمغم بصوت ملؤه الرفق والحنان :

– آسف يا عزيزتى .. سأفعل كل ماتريدين .

وهنا كان قد بلغ بى حب الاستطلاع أشده . . فعزمت على أن أستطلع سر الرجل بأية وسيلة . . وأخذت أقترب منه ثم حييته فى أدب ورقة .

وفزع الرجل فى بادىء الأمر إذ لم يتوقع أن يبصر أحداً بجواره ، ولكنى كسوت وجهى كل ما استطعت من مظاهر المودة والصداقة حتى أبعث الطمأنينة فى نفسه وقلت له مترفقاً :

— هل يسمح سيدى أن ألتقط له صورة وهو يتأمل النهر ؟ . .

ولم أكن أقصد بسؤالى أن أصوره فعلا . لأننى - أولا - لم أتوقع من رجل فى مثل هذا الشذوذ أن يقبل التصوير بسهولة . . وثانياً - لأنه لم يكن به من المزايا مايجعلنى أتلهف على تصويره . . ولكنى أردت بسؤالى أن أجعل لى منفذاً إلى نفس الرجل حتى أستطيع استدراجه للحديث .

ولشدة دهش رأيت الرجل - بعد أن تردد برهةقصيرة ، يبتسم فى سرور ، ثم أخذ يتحسس رباط رقبته ويصلح طربوشه ، فيثبته على إحدى أذنيه ، ويمر بأصابعه على شاربه المتهدل ، ثم يشد سترته إلى أسفل ، ويقف وقفة المتأهب للتصوير قائلا : — أيعجبك هذا ؟

— جداً . .

وسرعان ما التقطت الصورة ، ثم أقبلت على الرجل أجاذبه أطراف الحديث ، ولم تكن هناك مشقة فى استدراج الرجل للحديث . . بل على النقيض . . لقد بدا لى أن الرجل قد اختزن فى صدره أحاديث أعوام ، وأن الفرصة قد سنحت له بمستمع طيب ليفرغ له كل ما فى جعبته .

وعلمت منه إنه كان موظفاً بوزارة الأوقاف . . وأنه قضى حياته قانعاً بوظيفته المتواضعة بين أكداس الملفات ، وأنه لم يطمع قط فى أكثر منها . . فقد كان مرتبها الضئيل يهيىء له الحياة الهادئة البسيطة التى تعود أن يحياها فى شقته المتواضعة بحى البغالة .

ولكن امرأته — كما بدا لى من حديثه — لم تكن مثله من ذلك النوع القانع الراضى ، بل كان بنفسها طموح ، وبروحها لهفة على حياة أفضل ، وعلى الخروج من تلك الشقة الرطبة المظلمة فى هذا الحى الخامل .

وأخيراً سنحت لها الفرصة التى تستطيع بها تحقيق أمنيتها وإرضاء نفسها الطموح . . وبدا لها شعاع من نور يضىء حياتها القاتمة ، عندما علمت أن قريباً لها قد توفى فأورثها قطعة أرض فى إحدى الضواحى .

أحست المرأة وقتذاك أن آمالها قد هبطت عن محيط

الأوهام والأحلام .. وأنها قد باتت فى عداد الرغبات التى لايصعب تحقيقها .

منـذ ذلك اليوم صممت فى نفسها على أن توفر كل دانق

يمكنها ادخاره حتى تستطيع فى النهاية أن تجمع مبلغاً تشيد به بيتاً على قطعة الأرض التى ورثتها .

ووصف لى الرجل تلك السنين الطويلة التى مرت به بعد ذلك ، ومبلغ ما كان يصيبه من ضيق وتبرم من ذلك الاقتصاد الذى أمعنت فيه المرأة ، وكيف كانت تمر بهما الأسابيع ، فلا يذوقون إلا « الجبن » أو « الفول » كى تستطيع أن تجمع القروش من هنا ومن هناك . . وكيف حرمت عليه الذهاب إلى المقهى الذى تعوّد أن يقضى فيه أوقات فراغه ، حتى تدخر الدريهمات التى يصرفها هناك . . وذكر لى كيف قاطعت صاحباتها حتى لا تظهر أمامهن بتلك الثياب الباهتة البالية التى لم تحاول أن تجددها منذ أن بدأت التوفير .

ثم رأيته يدفع يده فى جيبه ويخرج من محفظته الجلد صورة صغيرة قدمها إلىّ قائلا :

— هاك صورتها .

وتأملت الصورة فوجدتها لامرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال . . اتشحت بشال أسود من الحرير ، ولم يكن بها كثير من فتنة أو أنوثة . . ولكن كان يبدو عليها الكثير

من حدة الذكاء ، وقوة العزيمة ، وأعدت الصورة إلى الرجل .

وبعد برهة عاود حديثه قائلا :

— ولم يطل بنا الأمر كثيراً . . فقد استطعنا بعد بضع سنوات أن نجمع مبلغاً من المال يكفى لأن نبدأ البناء على أن ندفع الباقى على عدة سنين .

وعثرنا أخيراً على المقاول الذى قَبِلَ أن يقوم بعملية البناء وتم بيننا الاتفاق .

وذات يوم ذهبنا فى صحبة الرجل لنريه الأرض ، وأصرت هى على الحضور معنا رغم ذلك التوعك الذى أصابها نتيجة برد خفيف ، وعرضت عليها أن تؤجر عربة تحملنا من محطة السكة الحديد إلى قطعة الأرض ولكنها نظرت إلىّ نظرتها إلى مجنون ، وأصرّت على أن نسير على الأقدام .

وعندما عدنا إلى البيت . . كان التوعك الذى بها قد اشتد وانقلب ذلك البرد الخفيف فى يوم وليلة إلى التهاب رئوى .

ولا أطيل عليك الحديث فقد ماتت بعد بضعة أيام .

وصمت الرجل برهة ثم أردف هامساً فى اهتمام :

— لقد كانت تقاوم الموت مقاومة شديدة لأنها لم تكن

تريد أن تموت ، وظلت فى نضالها حتى لفظت آخر أنفاسها .
وكنت أسمعها تردد من حين لآخر : « يا إلهى .. إننى أريد البقاء » . ثم رأيتها تصمت فجأة ويبدو فى عينيها بريق عجيب .

وخيّل إلىّ أنها قد أدركت وقتئذ أن لافائدة من الإصرار على البقاء ، وأنها أحست أن الله قد اختارها لجواره ، وبدا لى أنها قد عزمت على شىء .. فقد أشارت إلىّ بالاقتراب منها وقالت فى صوت ملؤه الثقة والحزم : إياك أن تعدل عن البناء ، واذكر جيداً أننا عندما نلتقى فى الآخرة سأسألك عن كل ما فعلت .

وصمت الرجل ، ثم رأيته يربت على ساقى برفق ويرفع حاجبيه ويهز رأسه هزات خفيفة كأن فيه شيئاً يربكه ، ويقول متعجباً :

— ولكن الشىء الذى لم تذكره لى وقتئذ ، هو أنها سترافقنى طيلة عملية البناء !

ونظرت إلى الرجل فى دهشة ، ولم أدر بالضبط مايقصد بقوله .. ترى هل دفن المرأة فى قطعة الأرض .. أم هو يقصد أنها ترافقه بروحها ؟ ! .

واستمر الرجل فى حديثه قائلا :

— فى كل دقيقة . بل فى كل ثانيـة . . أجدها بجوارى لا تفارقنى لحظة واحدة . . حتى الآن أراها قد وقفت خلفنـا تنصت لحديثنا .

وودت لو أدرت رأسى بسرعة إلى الخلف لأتأكد من أنه ليس هناك من يقف وراءنا . . ولـكنى كنت أحس بشىء من الخوف جعلنى لا أحول بصرى عن الرجل الذى استطرد يقول :

— أنا أعرف فيم تفـكر . . فلا مراء فى أنك تتهمنى بالجنون ، أو تظننى أتوهم رؤية الأشباح .

— أبداً . . أبداً . . كل ما فى الأمر أن لديك قوة تخيـّل عجيبة !

— قوة تخيـل ؟ ! موظف يقضى أربعين سنة فى ظلمات وزارة الأوقاف تـكون لديه قوة تخيـّل ؟ ! لا . . لا ياسيدى إنى أراها تمـاماً ، كما كنت أراها فى الدار ، وأخاطبها وتخاطبنى .

لقد ضقت ذرعاً بالبناء . . حتى لقد فقـدت أعصابى منذ

لحظات عندما انتابتنى نوبة من الغضب ، فأنبأتها أنى لن أستمر فى هذه العملية المرهقة ، وأنى قانع بحى البغالة ، ولكنى رأيتها تبكى .. فندمت على ما فرط منى ، واعتذرت لها عن حماقتى .

والتفت خلفه قائلا :

ـ لا أظنك غاضبة علىّ الآن يا حبيبتى ؟

وهنا أحسست أنى لم أعد أحتمل .. فقد شملنى خوف شديد من الرجل المعتوه وامرأته الموهومة .

وسادت بيننا فترة صمت كنت خلالها أحدق البصر فيما حولى .. وأنا لا أكاد أصدق ما أسمع .

وغادرت الرجل دون أن ألتفت خلفى ، فقد كان بى خوف شديد .

وعدت إلى الدار ولم أحاول بعد ذلك أن أطرق المكان أو أقابل الرجل .

وإلى هنا انتهت قصة الرجل .. أو على الأصح كادت تنتهى .. فقد بقى منها جزء قصير .. يتعلق بالصورة التى التقطتها له . فعند ما انتهيت من تحميض (الفيلم) وطبعه .. رأيت شيئاً عجيباً .

إن الرجل لم يكن وحيداً فى الصورة ، فقد كان بجواره امرأة فى منتصف العمر ، متوسطة الحال ، قد اتشحت بشال من الحرير الأسود ، ولم يكن بالمرأة كثير من فتنة أو أنوثة ، ولكن كان يبدو عليها الكثير من حدة الذكاء وقوة العزيمة !!

معجزة كبرى

ولم أشك أن الدواء الذى كتبه الطبيب لم يكن الا مجرد «سدخانة» ومع ذلك فقد انطلقت لاحضاره ، باحثاً عنه فى الصيدليات التى وجدتها مفتوحة وقتذاك ، ولكني لم أجد له أثراً .

سيدى العزيز

ترددت كثيراً، قبل أن أكتب إليك . أولا لأنك لا تعرفنى ؛ وثانياً لأنى لا أستطيع أن أحدد بالضبط مطلبى منك ؛ ورجائى من الكتابة إليك ، لأننى لست فى حاجة إلى شىء . . حتى هذا العزاء الذى تعودت أن تهبه لقرائك المحزونين . . لست أرانى فى حاجة إليه ، فقد انصرم العمر ، فشفت الأيام قرحى وبرأت جرحى . . اللهم إلا أثراً لا أظنه بزائل حتى أزول أنا وتزول الحياة .

ولكن شيئاً واحداً هو الذى أتلهف عليه .. وهو تفسير لأمر أعيانى تفسيره . . تفسير عملى لا يتعارض مع اعتقاداتنا فى هذه الحياة . . ولا يجعلها تتطاير من رؤوسنا فتذهب مع الريح . . وتتركنا حائرين بين الشك واليقين . . تفسير يقنع كهلا مثلى قد أشرف على الهزيع الأخير من عمره ، ولم تعد لديه القدرة على تعلم طرق جديدة للتفكير . . هل فهمت يا سيدى ؟

لنعد القهقرى إلى أيام خلت وزمن ولَّى . . عندما كنت فى مقتبل العمر وفى أول عهد بالزواج . . إن مجرد الذكرى

تبعث فى رأسى نشوة ، وفى جسدى هزة كأنها أغنية تطوف بأذنى فيخفق لها القلب ، أو شذى عطر ينفذ إلى أنفى فيهفو له الفؤاد . . عندما أنجبنا طفلتنا الأولى . . « نادية » . . وعندما ظننا أن أخاً سيتبعها أو أختاً . . ولكن السنة مرت تلو السنة دون أن نرزق سواها ، ويخيل إلىّ أن ذلك قد دفعنا إلى الشغف بالطفلة وتدليلها إلى حد « الإتلاف » . . أو هذا على الأقل ما يتهم به أبوان ملأتهما اللهفة على إبنة وحيدة . . ولكنى لم أك أفهم قط معنى أن « يتلف » الطفل أو كيف « يتلف » ، لأننى من نوع مرهف الحس . . لا أعتقد أن تلف الطفل يمكن أن يتأتى إلا بضربة أو نهرة أو إيلام نفسه أو تحطيم روحه أو حرمانه ، أو إرهابه . . أما بحبه ، أو الاسراف فى حبه . . فلا أظن . . بل إننى لا أفهم معنى أن يقال « إسراف فى الحب » . . بينما الحب لا يمكن أن يكون إلا إسرافا . . وإلا ما كان حبا .

إننا قطعاً أحببناها أكثر مما نحب أى شىء آخر فى الحياة . . أكثر من نفسينا . . ولن أحاول أن أصفها لك . . فلا أظننى أستطيع أن أرسم فى ذهنك صورة صادقة عن عذوبتها وحلاوتها . . ولكن ثق ياسيدى بأنها كانت مخلوقا محبوباً ، ببراءتها ، وطهارتها ، وبتفكيرها الساذج ، ومطالبها التافهة . .

بضحكاتها وبكائها .. ومرحها ولهوها .. بعينيها الخضراوين ، وشعرها الأصفر الملتف فى حلقات ذهبية . . بأنفها القصير الدقيق ، وشفتيها الرقيقتين . . كل شيء فيها كان جميلا محببا .

وأضحت الطفلة محور حياتنا . . وكنت إذ ذاك موظفاً فى السكة الحديدية فى إحدى بلدان الوجه البحرى ، وكنا نقطن بيتاً صغيراً ذا حديقة غناء فياحة .. وكانت حياتنا هادئة ناعمة . فلا أكاد أنتهى من العمل حتى أعود إلى الدار . . وبى شوق إلى كل ما فيها . . ويمر بنا الوقت وقد غمر ثلاثتنا فيض من السعادة . . نلهو بالطفلة وتلهو بنا . . أقص عليها قصصاً عن « الفيل أبو زلومة » وعن « أبو طرطور » . . وتصحح هى أخطائى إن أخطأت . . وتذكرنى إن نسيت . . وتستفسر عن أشياء لم تفهمها بعد . . ثم تمتطى كتفى . . ونذهب إلى اللعب فى الحديقة . . أية حياة هانئة كنت أحياها وقتذاك ؟ ! ماذكرت سحابة واحدة خيمت فى سمائنا . . ولا شاب صفونا كدر ولا شائبة .

كنت وقتذاك موظفاً صغيراً . . ولكن مرتبى كان يفى بكل حاجاتنا . . بل كان يزيد حتى يفى بالكثير من الكماليات . ففى يوم الميلاد الرابع للطفلة أقبلت على الدار وفى يدى لفافة كبيرة . . وكانت قد تعوّدت أن تلقانى بلهفة وفرح . .

وبسؤال يقفز على شفتيها « جبت لى إيه ؟ » . ولذا فقد كنت دائماً أحضر شيئاً . . أى شىء . . قطعة من « الشيكولاتة » « لبان إنجليزى » . . « مصاصة » . . أى شىء كان يرضيها . . مادمت قد تذكرتها وأحضرته . . وفى ذلك اليوم أردت أن أفاجئها مفاجأة سارة . . فابتعت لها « عروسة » كبيرة تغمض عينيها حينما ترقد . . وابتعت لها فراشاً كاملا مزركشاً ، وكلفنى ذلك مايقرب من الثلاثة جنيهات كنت قد استطعت أن أوفرها منذ بضعة أشهر استعداداً لهذا اليوم . ولا شك أنك تعرف ياسيدى قيمة الثلاثة جنيهات فى ذلك الزمن . . وقيمتها بالنسبة لمرتب موظف صغير مثلى .

كانت فرحة الطفلة « بالعروسة والفراش » فرحة أشعرتنى بأن الجنيهات الثلاثة لم تذهب سدى . . ثلاثة جنيهات ؟ ؟ . . ما أتفهها ! ! إن العالم كله لا يساوى عندى فرحتها حينذاك . . لقد أمسكتها برفق .. ثم ربتت عليها بحنان .. ووضعت فوقها الغطاء . . ثم قالت لى هامسة : « لندعها الآن تستريح . . فهى لا شك متعبة » .

ولم أكن أظن قط أن « العروسة » الجديدة — أو « سوسو » كما سمتها — ستشغلها إلى هذا الحد . . وتكلفها كل هذا الاهتمام الجدي . . فقد اعتبرتها مخلوقاً حياً . . فى حاجة

إلى كل ما تحتاجه هى . . وكانت ترقدها فى الليل بجوارها . . وكم كان يطربنى أن أرقبها . . وهى تتصرف مع اللعبة . . تماماً كما تتصرف أمها معها . . مقلدة إياها فى كل شىء . . وفى كل كلمة . . تحملها على كتفها ، وتمثل كأنها تغسل لها وجهها ، وتغير ملابسها ، وتطعمها ، وعندما آوى فى الظهيرة إلى الفراش كنت أبصرها وهى تشير إليها بسبابتها محذرة : « سوسو بابا نام . . إياك والبكاء » .

وفى ذات يوم سألتنى « نادية » أن أحضر لها فراشاً آخر صغيراً . . فسألتها مداعباً : « فراشاً وعروسه ؟ » . . ولكنها هزت رأسها قائلة :

— لا . . لا . . فراشاً فقط .

ثم اقتربت منى وهمست فى أذنى إنها تريد الفراش للطفل الجديد « ابن سوسو » .

ولم أتمالك من الضحك . . وفى اليوم التالى أحضرت لها فراشاً صغيراً . . فوضعته بجوار الأول . . وفى الصباح وجدتها تضع أصبعها على شفتيها لكيلا أحدث حركة توقظ « النونو » ثم سحبتنى من يدى حتى وقفنا أمام الفراش الصغير ورفعت الغطاء عنه بخفة ثم قالت بصوت خفيض : « إنه بنت » ، وبعد

أن أبديت إعجابي سألتها عن اسمها فأجابت إنها ليست بحاجة إلى اسم فهى مجرد « نونو » .

وكنا نظن أنها سرعان ما تنسى ذلك المخلوق الوهمى وتطالب بإحضار طفلة صغيرة لتضعها فى الفراش الصغير بجوار « سوسو » ، ولكنها لم تفعل ، بل استمرت تعامله على أنه شيء ملموس توقظه وتدلله وتحميه تماما كما تفعل بأمه .

وفى ذات يوم - أظنه فى شهر سبتمبر - خيم علينا الظلام ونحن نلهو فى الحديقة ، وأحسسنا بالجو شيئاً من الرطوبة ، فدخلنا الدار . . وفى الصباح التالى شكت الطفلة ألما خفيفاً فى حلقها . . وبدت عليها تلك « الدعبلة » التى تبدو على الأطفال إذا غشيهم مرض أو هم . . واستمرت مستلقية فى الفراش . وبدا لى أن الأمر لا يزيد على برد خفيف لا يبعث على القلق ، إذ لم يكن بها أى ارتفاع فى درجة الحرارة .

ولم يدر بخلدنا قط أن الطفلة مريضة . . أو أن المسألة تستوجب استدعاء طبيب ، خاصة وأن التحسن بدا عليها فى نهاية اليوم عندما أخذت تستمع إلى القصص التى أخذت أقصها عليها ، وتشاهد الرسوم التى رسمتها لها ، ولكن عندما أقبل المساء بدا عليها شيء من التعب وارتفعت حرارتها قليلا

وتقايأت كوب اللبن الذى أعطيناها إياه ، وبدأت تشكو من ألم فى الصدر .

وحتى ذلك الوقت لم يكن هناك ما يدعو إلى الفزع ، فقد كانت فى تمام صحتها ، وكانت تضحك عندما أحاول إضحاكها . ولولا ذلك الألم البسيط ، الذى كان يذهب ويجىء لما كان هناك ماتشكو منه . ولكن لم تمض فترة من الوقت حتى بدأت أحس تغييراً طرأ عليها ، ورأيت جفنيها يتثاقلان وخبا بريق عينيها .

وأصابنا الفزع .. وخيل إلىّ أن قلبى يهوى فى جوفى .. وقلت لزوجتى : « إن نظراتها لا تعجبنى ، وسأذهب لإحضار الطبيب » ، وحتى حينذاك لم أكن أحس بعد أن المسألة قد بلغت دور الخطورة .

* * *

تصور يا سيدى بعد كل تلك السنين التى انصرمت والتى كانت كفيلة بأن تضع بيننا وبين الماضى جدراً سميكة من النسيان .. وبعد أربعين عاما تغير فيها كل شىء .. ما زلت أحس بقلبى يعصره الألم .. وبدمع عينى يراودها على الإنهمار كلما تذكرت تلك الساعات القلائل التى قضيناها بعد أن حضر الطبيب .. وعندما تبينا من نظراته مدى ما فى المسألة من خطورة .

لا أكثر عليك القول يا سيدى . . لأنى ماقصدت بكتابى إليك أن أحملك آلاماً ، أدعو الله من قلبى ألا يصاب بها إنسان . . لقد ماتت الطفلة قبيل الفجر . . ولم أصدق أنها ماتت فى بادىء الأمر . . إذ كان يبدو لى موتها بعيداً . . ولم يستطع ذهنى المرهق المكدود أن يسلم بأنها ذهبت إلى غير رجعة . . فهذا شىء لا يمكن أن يكون حقيقة ، وحتى بعد أن رقدت فى جدثها وعدنا إلى الدار الموحشة الصامتة لم نكن نصدق أنها ماتت . . وقع أقدامها . . صوتها . . ضحكاتها . . ما زلت أحس بكل ذلك يملأ الدار الخرساء . . وما زلت أتوقع بين آن وآخر أن أراها مقبلة علىّ بلهفة واشتياق ، وعلى شفتيها سؤالها التقليدى الطريف : « جبت لى إيه ؟ » .

وحتى يومنا هذا ما زالت تطاردنى مرارة الأسابيع والأشهر التى أعقبت موتها . . ماذا تستطيع أن تفعل كلمات العزاء بقلوب كليمة مجروحة . . وأنى لقطرات الدمع أن تطفىء ناراً تستعر فى الجوانح وتتأجج بين الضلوع .

وبعد فترة نقلت إلى القاهرة . . ثم مضى العام تلو العام ولم أعد بعد موظفاً صغيراً . . بل أصبحت ذا مرتب محترم . . وبعد أربع سنوات رزقت بابنتى الثانية « سامية » . . وسرعان

ماتمت حتى أضحت طفلة جميلة كأختها الراحلة .. وإن كان جمالها من نوع آخر .. نوع رقيق الجسد ، دقيق التقاطيع ، أسود العينين ، حالك الشعر .

وقد اتفقت وأمها على ألا نذكر لها شيئاً عن « نادية » ، معتقدين أن من الخير أن نبعد عنها أمثال تلك الحقائق الكريهة ، ولا شك أننا كنا مخطئين فإن الموت ليس أكثر من نتيجة .. نتيجة طبيعية محتومة .. قد تكون آجلة أو عاجلة .. ولكنها لابد واقعة .. فلم نرتاع منها ومن التفكير فيها ؟ لا تؤاخذنى يا سيدى .. هذه فلسفة عقيمة .. لا يمكن وضعها إلا على أطراف الألسن .. أما فى قرارات النفوس فلا موضع لها .

وهكذا مرت الأيام والطفلة لا تشعر إلا أنها أول من أنجبنا .. وعندما بلغت الرابعة وأقبل عيد ميلادها سألتنى أن أحضر لها عروساً تغمض عينيها وفراشاً ترقدها فيه ، فأحضرت لها ماطلبت .. وخيل إلىّ أن الأيام تعيد نفسها .. فقد أقبلت « سامية » على العروس تنومها وتدللها وتغنى لها .. تماماً كما كانت تفعل أختها .. من قبل .

وبعد بضعة أيام وجدتها تسألنى أن أحضر لها عروساً أخرى .. ولست أدرى ما الذى جعلنى أسألها عما إذا كانت

تقصد فراشاً آخر ، ولـكنها هزت رأسها وأفهمتنى أنها تريد عروساً وفراشها حتى تؤنس عروستها الأولى .

ولم أكن أستطيع أن أرفض لها طلباً فأحضرت عروساً وفراشاً آخرين وضعتهما بجانب الأولين . . ولم تمض بضعة أيام حتى لاحظت أنها بدأت تضع دميتيها فى فراش واحد وتترك الفراش الآخر خالياً . . وتـكرر منها ذلك . . فسألتها ضاحكا عما يدعوها لذلك الأمر، فأوضحت لى أنها تعد الفراش للطفل الذى يوشك أن يولد . . وفى الصباح التالى وجدتها تضع سبابتها على شفتيها آمرة إياى ألا أحدث ضجة لئلا أوقظ « النونو » ، ثم سحبتنى من يدى وأوقفتنى أمام الفراش الصغير الخالى وأزاحت الستار هامسة : « إنه بنت » .

أية ذكريات هاجعة أيقظتها الطفلة فى قلبى ، وأى إحساس بالخوف سرى وقتذاك فى نفسى . . لقد صمت برهة ثم قلت لها فى رفق : « جميلة جداً ياحبيبتى . . ما اسمها ؟ » . وأجابتنى الطفلة بسرعة دون كثير تفـكير : « نادية . . أليس اسماً جميلا » . ولم أجب ، فقد كنت فى حال لاتسمح لى بالـكلام . . لقد قلت لك أنى رجل مرهف الحس . . وكان الأمر أكثر مما أتوقع ومما أحتمل .

ومضت بضعة أشهر ثم مرضت الطفلة . . وبعد دقائق

معدودات كان الطبيب بجوارها .. وقد أمرنا بألا نتركها تغادر الفراش وأن نعطيها من اللبن قدر ما تستطيع أن تشرب وأخبرنا أنه سينبئنا بالنتيجة بعد التحليل ، وفى المساء أخبرنا أنها مصابة بالدفتريا .

وسأمر عابراً بالأيام الثقيلة التى تلت ذلك .. فلست أذكر الكثير عما حدث بها .. إذ كان يخيل لى أنى كنت أعيش وسط ضباب كثيف أشاهد تلك المعركة التى كانت تدور بين ابنتى وبين الموت .. وأنا مكتوف اليدين لا أملك سوى الصبر والانتظار .. حتى كان ذات يوم بدا لى فيه أن الطفلة العزيزة على وشك أن تخسر المعركة .. وحضر الطبيب فى ذلك المساء .. وبعد أن مكث ربع ساعة انتحى بى جانباً وأنبأنى أنه لم يعد فى وسعه شيء .. وأننى يجب أن أتوقع الأسوأ . ثم كتب لى اسم دواء وطلب منى احضاره قائلا : « إنه مجرد محاولة قد تعيد إلينا بعض الأمل » .. وانصرف على أن يعود إلينا قبل منتصف الليل .. وأدركت وقتئذ أن الطفلة قد حانت نهايتها .

ولم أشك أن الدواء الذى كتبه الطبيب لم يكن إلا مجرد « سد خانة » ومع ذلك فقد انطلقت لإحضاره .. باحثاً عنه فى الصيدليات التى وجدتها مفتوحة وقتذاك ، ولكننى لم أجد له أثراً .

وأخيراً عدت أدراجى إلى الدار وجلست وزوجتى فى صمت .. وبين هنيهة وأخرى كنا نتسلل على أطراف أصابعنا لنرقب طفلتنا فى معركتها الخاسرة .

وعندما دقت العاشرة تسللنا إلى الحجرة ، ونظرنا إلى الفراش وكانت الصغيرة تبدو نائمة على جنبها الأيمن وقد ثنت ركبتيها قليلا .. وفجأة رأينا شيئاً !! لم أكن وحدى الذى رأيته .. ولا كانت زوجتى وحدها التى رأته .. لقد رأيناه كلانا .. رأيناه بأعيننا كما تبصر أصابعك فى وضح النهار .. لا وهماً .. ولا شبحاً .. لقد رأينا بجوار الطفلة الراقدة طفلة أخرى قد أحاطتها بذراعها كأنما تحاول أن تقيها الشر، وتدرأ عنها غائلة السوء . وكانت الطفلة هى نادية !! أجل لقد كانت نادية ترقد بجوار سامية وكلتاهما واضحة وضوح الأخرى .. وكانتا تبدوان كالنائمتين .. ووقفنا نحملق فيهما وكأننا فى حلم .. وأخيراً اختفت نادية فجأة كما ظهرت .. وتقدمنا بخطى وئيدة وتحسسنا « سامية » فإذا بها نائمة .

ونظرت إلى المنضدة فوجدت عليها زجاجة لم تكن

موجودة من قبل . .
ورفعتها فى يدى فإذا بها
الدواء الذى أشار به
الطبيب .

قد تتهمنى يا سيدى بأننى لم أر فى الفراش سوى شبح صورته لى الأوهام . . ولكن مارأيك فى زجاجة الدواء ؟

وعندما حضر الطبيب مرة أخرى قبيل منتصف الليل وانحنى عليها أبصرت فى وجهه دهشة شديدة .

وبعد أن فحصها برهة استدار وقال فى هدوء وهو يحاول أن يخفى شيئاً من حيرته : « هذه معجزة من السماء . . إنها الآن بخير . . أعتقد أن الخطر قد زال » .

وكان ذلك منذ زمن بعيد وقد ماتت زوجتى منذ بضع سنين ، وتزوجت سامية ، وأنجبت طفلة خضراء العينين ، ذهبية الشعر ، هى حفيدتى « نادية » لشد ماأراها تشبه نادية الأولى!

هل عندك يا سيدى تفسير لكل هذه الأمور ؟ تفسير يقبله عقلى الكهل لا أظن ! ! فأغلب ظنى أن هناك أشياء فى هذه الحياة لا نستطيع تفسيرها . . وليس علينا إلا أن نقبلها على علاتها .

الحاجّملى

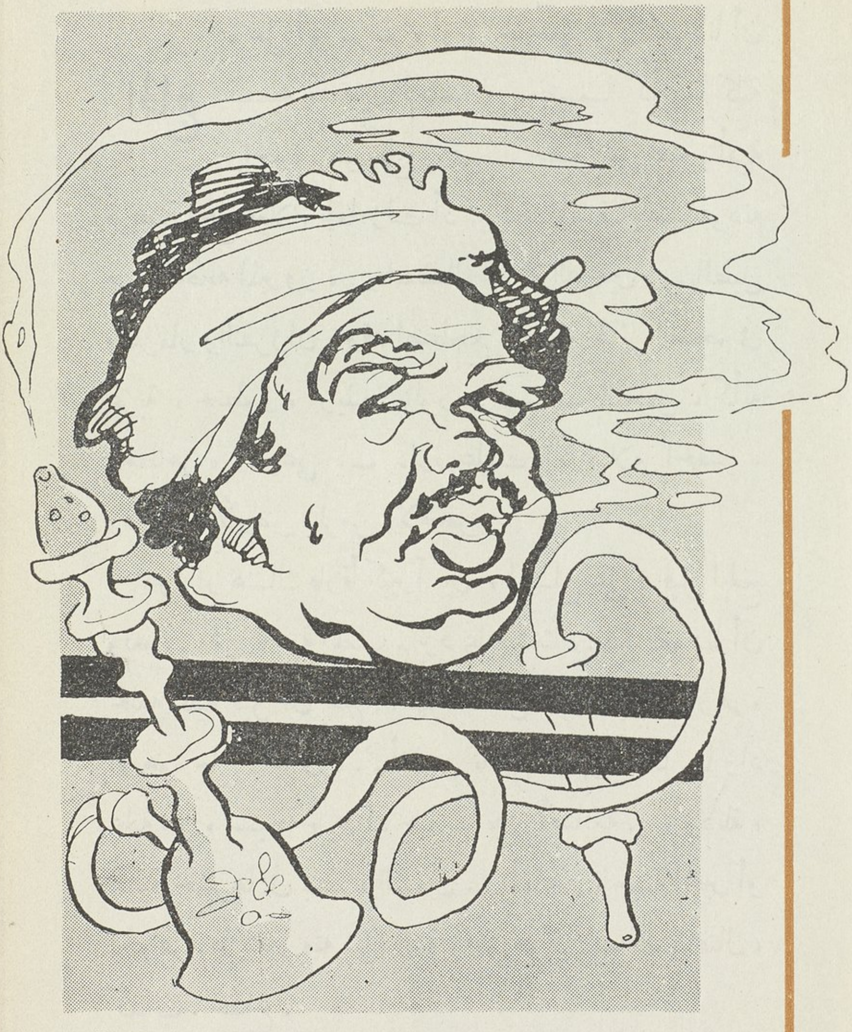

خيل الىّ أنه لم يكن هناك من سمع الصوت سواي ، وبدأت أشعر بالخوف والحرج وتناولت « مبسم الشيشة » أشد منها نفساً أستعين به علي تمالك نفسى ، وهنا رأيت أعجب ما يمكن لانسان أن يراه .

الحاج

« على أبو سريع » أو « الحاجّعلى » كما تعودنا أن نسميه مدغمين الكلمتين ببعضهما كأنهما كلمة واحدة . هو حاج رسمى . . حصل على لقبه بتأدية فريضة الحج فعلا ، وما زلت أذكر كيف استقبل عند عودته من « حجه المبرور » . . استقبال الغزاة الفاتحين . . « بالطبل والمزمار والنقرزان » وقد اضطجع بجسمه الهائل الضخم فى عربة « حنطور » زينت بالورود وسعف النخل ، كأنه « مطاهر » . . وعلى باب داره علقت الأعلام الخضر ، وفرشت الأرض بالرمل الأصفر .

ولم أر هناك فارقاً كبيراً بين « الحاج على » قبل الحج وبعده . . فمن ناحية اللقب لم يزد عليه شيئاً . . فقد تعودنا أن نخلعه عليه قبل أن يحج . . فهو حاصل عليه « من منازلهم » أو هو حاج « عرفى » . . أما من ناحية المظهر ، فكل ما زاد عليه هو « سبحة » يحرك حباتها بين أصابعه . . « ودبلة » فضية حشرها فى بنصره السمين . . أما من ناحية المخبر أو الجوهر ، فلم يتغير منه شىء البتة ، فهو هو . . نصاب ، محتال ، كذاب ، خداع .

وهو لا ينسى « الفرض » ! ولكن الفرض عنده لا يتعدى

ركوع وسجود وتحريك شفاه بكلام تعود اللسان نطقه دون أن يعيه الذهن أو يفهمه . . ولا نعنى بذلك أنه يؤدى الصلاة تظاهراً ، بل عن يقين واعتقاد واقتناع بأن هذا هو واجبه نحو الله . . وماذا يطلب منه أكثر من الصلاة والصوم وحج البيت ؟

هذا هو واجبه نحو الله ، ولقد قام به خير قيام . . أما واجبه نحو عباد الله ، فهو يعتقد أنه شيء آخر لا صلة له البتة بواجبه نحو الله ، ولذلك يحرص على ألا يخلط بينهما . . وفلسفته فى هذا أن « الشغل شغل » ، وأن « أكل العيش يحب الحداقة » . . ! وأكل العيش يعنى لديه ابتزاز أقصى ما يمكن ابتزازه من أموال عباد الله . . أما « الحداقة » فهى عنده وسيلة واسعة مطاطة ، تستطيع أن تحوى كل ما يخطر على البال من ضروب المكر والدهاء ، والنصب ، والاحتيال .

كان هذا هو مذهب « الحاجعلى » قبل الحج لا يخلط أبداً بين الله وعباد الله . . ! ويعتقد اعتقاداً راسخاً . . أن الله راض عنه كل الرضا . . أما عباد الله . . فبينه وبينهم حساب ، ليس لأمور الدين به شأن ، فهى مسألة « شطاره وحداقه » .

ولقد ظل مذهبه كما هو ، لم يغير فيه الحج شيئاً . . بل لقد زاده تمسكا به خاصة وأنه يعتقد أن حجه لبيت الله قد رفع

شأنه عند الله وزاد من رضى الله عليه ، وغفر له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر ، ولذلك فهو مقبل على عباد الله ولديه من الغفران رصيد كبير ، ويستطيع اعتماداً على هذا الرصيد أن يفعل بهم مايشاء ، وأن يغشهم ، ويحتال عليهم ، دون أن يخشى غضب الله . هذا هو رأى الحاج فى واجبه نحو الله وواجبه نحو عباد الله . أما رأيه فى الواجب الثالث ، واجبه نحو نفسه . . فقد كان لا يحب أن يناقشه فيه أحد . . فقد كان لا بد له أن يعطى نفسه حقها . . من الحشيش . . ومن النساء .

و « الحاجعلى » رجل خفيف الدم كغيره من « السمان » الذين يعوضهم الله عن الثقل فى أجسامهم خفة فى دمهم . . فهو سريع النكتة . . حاضر البديهة . . حلو الفكاهة . . ولست أشك فى أن هذا هو السبب الذى جعل عباد الله يغفرون له ما يرتكبه معهم من غش ونصب ، وفى الوقت نفسه يقبلون عليه وعلى بضائعه ، حتى ازدحم بهم حانوته ، رغم تأكدهم أنه « مغلوانى » وأنه من الغشاشين المخادعين . . « المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » .

كان الرجل تاجر (ياميش) بشارع بين الصورين . . يزخر دكانه بغرارات الجوز واللوز والبندق . . ولفات قمر الدين وصناديق التين . . وزجاجات الشربات ، وعلب الحلاوة

الطحينية والملبن . . وصفائح الملبس ، وكان يتخذ مركزه فى وسط الحانوت على مسطبة مكونة من أربعة صناديق متجاورة غطى سطحها بحصير وتربع فوقه بجسده السمين المنتفخ وقد تدلى « كرشه » أمامه كأنه شىء منفصل عنه . . وانبسط على جسده قفطان حريرى مخطط كشف ذيله عن جزء من ساقيه الضخمتين ، كأن بهما داء الفيل . . وقد التف حول سمانتيهما « حمالة الشراب » وبدأ طرف حذائه الأصفر ذى الرقبة الطويلة واللاستك يطل من تحت أكداس اللحم المحملة فوقه ، فإذا صعدنا البصر إلى أعلى وجدنا الحزام الكشميرى وقد لف حول محيط الكرة الأرضية . . لا تكاد تبدو له بداية ولا نهاية. فإذا تجاوزنا الحزام صادفنا صدر الرجل « المتختخ » كأنه صدر امرأة بدينة وقد تهدل فوقه شىء يبدو كأنه كرش آخر .

فإذا أمعنا البصر فى ذلك الشىء الذى ظنناه كرشا . . اتضح لنا أنه بداية ذقن أو « لغد » تعلوه ذقن الرجل الأصلية وقد توسطها طابع الحسن ، أو قل طابع القبح ، وفوق الذقنين : الذقن السفلى والذقن العليا شفتيه الغليظتين ، وقد وضع بينهما مبسم الشيشة تندفع خلالها أنفاس الرجل كأنها أنفاس الوابور فتحدث فى الشيشة (كركبة) و (بقللة) .

فإذا تجاوزنا الفم صادفنا أنفاً يبدو صغيراً نسبياً . .

بجوار كتلتى اللحم اللتين يتكون منهما خدى الرجل ، أما العينان فلست أدرى كيف كان الرجل يبصر بهما من فرط ضيقهما ، فهما تبدوان فى وجهه كأنهما ثقبين .

وأخيراً تبدو رأس الرجل صلعاء جرداء .. تمتد إليها يده بين آونة وأخرى بالمنديل المحلاوى لتجفف قطرات العرق التى لا تفتأ تتصبب منها ، بصرف النظر عن حرارة الجو أو برودته !

و « الحاجعلى » فى جلسته هذه يفعل كل شىء .. يبيع ويشترى ويشرب الشيشة ، ويلقى النكات والمغازلات .. فلسانه لايكف عن الحركة بين شدقيه .. وسيل الحديث لا ينقطع عن التدفق .. ولو حاولنا أن نسجل له حديثه فى لحظة من اللحظات على سبيل (العينة) لما وجدنا فيها أكثر مما يلى :

« ياميت حلاوة » .. « ياميت ندامة على اللى حب ولا طالشى » .. « أبوك .. قول اشمعنى .. يمسكوه بورقة » .. « يانور العيون أنست » .. « إنتى يابت يا اللى زى القشطة » ..

وقد تأخذه الحماسة فيصفق بيده ، وقد يتملكه الطرب فيندفع فى الرقص وهو جالس على مصطبته يحرك كرشه ويهز كتفيه ويتمايل ذات اليمين وذات اليسار .

فإذا ما أذن المؤذن بالصلاة هبط من على مصطبته صائحاً

بقوله المأثور « ساعه لقلبك وساعه لربك » ، ثم يعطى لربه نصيبه من الركعات والسجدات .

هذا هو «الحاج على» ، المرح المهزار .. وجل زبائنه من غواة الضحك .. يضحكهم ويضحك عليهم ، ويغتفرون له غشه وخداعه من أجل خفة دمه .. !

وكنت للرجل صديقاً حميما .. فقد كان يقطن بجوارنا فى درب الجماميز ، وكنا كثيراً ما نقضى سهرتنا سوياً فى مقهى « عكاشه » على ناصية الشارع نلهو بلعب الطاولة والتدخين والسمر وحيث يتناول هو « فصاً » أو « فصين » يزن بهما رأسه ..

ومرت بى فترة من الوقت شغلت خلالها عن رؤية الرجل حتى كانت ذات ليلة ذهبت إلى المقهى لأقضى السهرة معه ، فلم أجده ، وسألت عنه فعلمت أن به وعكة ، وأنه راقد فى داره .. ورأيت الواجب يحتم علىّ أن أزور الحاج ، وأطمئن عليه ، ولم يكن الأمر يكلفنى كثير مشقة ، فقد كانت دار الرجل على قيد خطوات من المقهى .

وتوجهت إلى الدار ، وقرعت الباب « بالسقاطه » الحديدية المدلاة عليه ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى فتح الباب ، ووجدت أمامي خادما يسألني عما أريد ..

ولفت نظرى فى الخادم جلبابه . . فقد وجدته من قماش مخطط خطوطاً حمراء وخضراء . . كأنه إحدى فانلات « كرة القدم » .

ولم آبه كثيراً لجلباب الخادم . . رغم غرابة منظره ، لأنه خادم ، ولا حرج عليه فى أن يلبس ما يشاء ، وأجبته على سؤاله بأننى أريد الحاجعلى . فعاد يسأل :

ـــ نقول له مين ؟

وذكرت له اسمى فاختفى ، وعاد بعد برهة ليقول :

ـــ اتفضل . .

وتفضلت ، ودخلت إلى الصالة ، فوجدت ما يقرب من السبعة أطفال ، ما بين بنين وبنات ، تتراوح أعمارهم بين الثانية والثانية عشرة وقفوا فى الصالة يتطلعون بأبصارهم إلىّ .

وتملكتنى من رؤيتهم الدهشة ، لا لكثرة عددهم ، فقد كنت أعلم أن لدى الحاجعلى من الأولاد ما يربو على هذا العدد ولكن الذى أدهشنى هو أنى وجدتهم جميعاً البنات منهم والبنين قد ارتدوا جلابيب من نفس القماش الأحمر والأخضر المخطط الذى يرتديه الخادم .

وسرت فى طريق متجاوزاً « تيم الكرة » الذى يتطلع ببصره إلىّ . . واتجهت إلى حجرة الاستقبال حيث قادنى الخادم .

لا . . هذا كثير !.. لابد أن أهل الدار قد أصيبوا بلوثة !

من يصدق أنني وجدت بياضات الأرائك والكراسي من نفس القماش ؟

ودخلت على « الحاجعلي » ، فإذا بي أجده مستلق على الفراش وقد تكور كرشه وبدا كأنه قبة جامع . . لافرق بينهما سوى أن قبة الجامع بيضاء ، أما كرش « الحاجعلي » فقد كان مخططاً بخطوط حمراء وخضراء .

أجل ، فقد كان الرجل نفسه يرتدي جلباباً من القماش إياه !

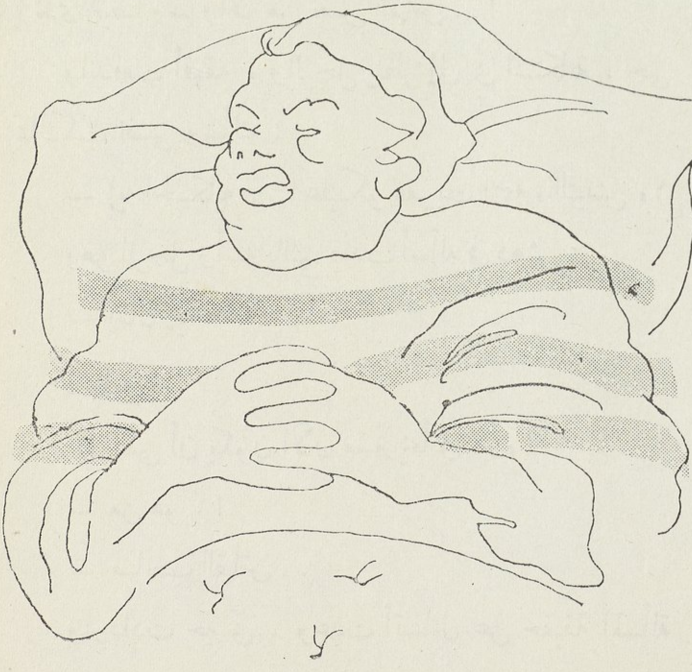

وقلت للحاج :

ــ لا بأس عليك ياحاج ، إنت انكسرت من الماتش؟!

وفهم الرجل ما أعنيه ، وأنى أقصد « التريقه » على جلبابه فأجاب مبتسما :

ــ اجلس . . إنك لم تر البقية بعد . .

ــ هل مازالت هناك بقية ! ؟

وهز رأسه ببساطة وأجاب بالإيجاب . .

ثم رفع ذيل جلبابه قليلا وكشف عن صدره فوجدته يرتدى قميصاً وسروالا من نفس القماش . . !

واندفعت أقهقه ، والرجل ينظر إلىّ فى استكانة ، حتى تمالكت نفسى وسألته :

ــ إيه الحكايه . . ؟ عليكو عفريت اسمه « التيتش » ؟

وهز الرجل رأسه بالنفى فعدت أسأله فى دهش :

ــ أمال إيه ؟ ! !

فأجابنى :

ــ عسى أن يكون الآن مستريحاً فى قبره ! .

ــ من هو ؟ !

ــ صاحب القماش . .

وازدادت حيرتى ، وعدت أتساءل عن حقيقة المسألة

هل هو « ندر » من « الحاجعلى » أن يلبس هذا القماش إذا ماتوفى صاحبه ؟ أم أن هناك « أسياد » يركبون الرجل وأن « الـكودية » قد أشارت عليه بلبس هذه الثياب لمحاولة ارضائهم ؟

ولـكن « الحاج » عاد يهز رأسه بالنفى ، ثم صمت برهة وبدأ يقص علىّ حقيقة الأمر قائلا :

— ياسيدى .. المسألة بسيطة .. ذهبت منذ بضعة أيام لأقضى سهرتى فى المقهى ، واتخذت مجلسى على « الدكة إياها » التى تعودت أن أجلس عليها ، وطلبت من « دقدق » الشيشة ، ووضعت فيها الدخان « والذى منه » ولم أكد أشد منها نفساً أو نفسين حتى حضر المعلم « بطنجهـا » كعادته .. ثم قال : « السلام عليـكم » .. « عليكم السلام » ... « اتفضل يامعلم » .. قعد المعلم . « تلعب عشرة .. يا حاجعلى » .. « ألعب .. ماالعبش ليه .. هوانت صغير ! » .. وصفق المعلم « بطنجها » وطلب من « دقدق » أن يحضر للطاولة .

وبدأنا اللعب .. « شيش جهار » ... « شيش ياك » .. « معلهش يا زهر » .

وحمى اللعب ، فتركت الشيشة جانبا .. وأقبلت على الزهر .

وهنا حدث أمر عجيب .. فرغم أننى كنت أجلس وحدى على « الدكة » .. ورغم انهماكى الشديد فى اللعب .. فقد بدأت

أحس أن هناك شخصاً يجلس بجوارى . . شخصاً أستطيع أن أراه بطرف عينى ، وأنا منصرف إلى الطاولة .

وحولت بصرى فجأة لأرى هذا الشخص الذى جلس بجوارى ، ولكنى لم أجد أحداً ، فعدت إلى الانهماك فى اللعب ، ومع ذلك فقد استمر بى الاحساس بأن هناك شخصاً يجلس بجوارى وأنى أستطيع أن ألمحه بطرف عينى . . واستمر هذا الإحساس متسلطاً علىّ حتى حضر المعلم « رجب » واقترب ليجلس بجانبى ، وهممت بأن أصيح به محذراً حتى لا يجلس على الرجل الذى أراه بجوارى ، ولكنى خشيت أن أكون واهما . . فيتهموننى بالجنون .

وعدت إلى اللعب وأنا أحس قلقا ، فقد اعتقدت اعتقاداً جازما بأن المعلم « رجب » يجلس على حجر الرجل الذى جلس على « الدكة » بجوارى ، وأن الرجل لاشك فى ضيق شديد .

وقذفت بالزهر ، وقلت : « شيش ياك » . . وتمهلت برهة أفكر فى كيفية تحريك الحجارة . ثم هممت بأن أرفع حجراً من إحدى الخانات عند ماسمعت صوتا يقول لى : « سيب ده واحبس فى الياك ياغبى » .

وتملكنى الدهش فقد كان الصوت غريباً عنى ، لم يكن صوت « بطنجها » ولا « رجب » ، بل صوتاً آخر ، وأحسست

بالغضب، وهم دمى بأن يفور، لولا أننى وجدت أن اللعبة التى أشار بها علىّ الصوت هى اللعبة « الصح » فلم أجد بداً من احتمال الإهانة وتنفيذ اللعبة.

وخيل إلىّ أنه لم يكن هناك من سمع الصوت سواى، وبدأت أشعر بالخوف، والحرج، وتناولت « مبسم الشيشة » أشد منها نفساً أستعين به على تمالك نفسى، وهنا رأيت أعجب ما يمكن لإنسان أن يراه.

لقد نفثت الدخان من فمى فلم يتصاعد فى الهواء، بل أخذ يتكتل ويتجسد حتى ظهر من خلاله صاحب الصوت.

أجل لقد رأيت أخيراً ذلك الرجل الذى كان يجلس بجوارى، وقد وقف ينظر إلى الطاولة مرتدياً جلباباً طويلا وطربوشا.. والتفت حولى خلسة أرقب وجوه الموجودين وأرى أثر ظهور الرجل عليهم، فاتضح لى أنهم لم يميزوه، وأنى أنا وحدى الذى رأيته.

وبدأ الرجل، أو قل الشبح، يرشدنى فى كل لعبة، « فك الجوهار ياحمار».. « احبس فى الدو ياتيس » « سيب الحجر ده يا طور ». لقد كان الشبح قليل الأدب بعض الشىء، ولكنى احتملته فى سبيل نصائحه.

وكيف لا أحتمله!! وقد انتهى بى الأمر إلى أن أغلب

المعلم « بطنجها » أربع عشرات ، وأنا الذى لم أغلبه فى حياتى مرة واحدة . . حتى كاد الرجل أن يصاب « بنقطة » .

وأخذ النـاس ينصرفون من المقهى الواحد تلو الآخر حتى « صفصفت » علىّ وعلى صاحبى الشبح .

وجلس الشبح بجوارى وهممت بأن أطلب له شايا أوقهوة ولـكنه أفهمنى أن الأرواح لا تستطيع الأكل أو الشرب . . وبدأنا فى « الدردشة » والحديث عن هزيمة « بطنجها » التى لم يسمع التاريخ بمثلها .

ولاحظت على الشبح دلائل هم وعلامات ضيق وقلق ، فسألته عمـا به فهز رأسه قائلا : « لا شىء » ، ولـكنى ألححت عليه فراح الشبح يسرد حكايته قائلا :

— إن مصيبتى كبرى لأن روحى معلقة بين السماء والأرض فلا أنا حى أسعى وأعيش مع الأحياء ، ولا أنا ميت فتصعد روحى إلى السماء مع بقية الأرواح !

ونظرت إليه فى دهش وسألته كيف يمكن أن يحدث هذا ! فأجاب :

— إن قصتى تبدأ منذ عشرين عاما عند ما كنت أعمل مع أبى فى تجارته فى الغورية ، وكنـا نتجر فى الأقمشة ، وفى يوم نحس أصابنا سوء الحظ فضاعت علينا صفقة كبيرة ، واتهمنى

أبي بأني أنا الذى أضعتها ، وأني خائب لا أصلح للتجارة ، وأني سأعيش طول عمرى عالة عليه .

وأثارنى قوله ، واشتد بيننا النقاش وقلت له إنه هو الخائب وإنه يفسد بتدخله معظم الصفقات ، وأني لو كنت وحدى لأريته كيف تكون التجارة .

واندفعت فى ثورتى إلى بعض أثواب من القماش فحملتها على كتفى وقلت له إنى سأسرح بالأثواب وسأريه كيف يكون البيع ، وأقسمت إيماناً مغلظة أنى لن أعود حتى أبيعها . . وأن تحل لعنة الله علىّ فلا يهدأ جسدى فى أرض أو تستقر روحى فى سماء حتى أبيع آخر قطعة منها .

ولكنى لم أكد أغادر الحانوت وأسير فى الطريق بضع خطوات وأنا أحمل الأثواب حتى دهمتنى عربة فقتلت لساعتى .

وحملونى رفاقى إلى القبر وسط النحيب والبكاء وانتظرت أن تصعد روحى إلى السماء ، ولكنها لم تصعد ! فلقد حلت بى اللعنة ، ووجدت نفسى أتجول فى الطرقات وأنا أحمل الأثواب أحاول بيعها فلا يرانى أحد ولا يحس بى إنسان . . عشرون عاما وأنا أهيم على وجهى فى الطرقات محاولا بيع الأقمشة دون جدوى . وأخيراً عثرت على أول شخص استطاع سماعى ورؤيتى وهو أنت . . إن فى يدك خلاصى ،

وكل ما أريده منك هو أن تبتاع منى الأقمشة ، إن سعرها رخيص جداً بالنسبة لأسعار هذه الأيام .. فهى «بالتراب» .. إن الثوب لا يزيد ثمنه عن ثلاثة جنيهات .

☆ ☆ ☆

وأخذت أفكر فى قول الشبح فرأيت أنى أستطيع أن أصيب عصفورين بحجر . إذ أستطيع بشراء الأثواب أن أنقذ روح الرجل .. ثم إن الصفقة نفسها صفقة هائلة فمن ذا الذى يستطيع أن يشترى الآن قماشاً بأسعار ماقبل الحرب .

ولم أتردد كثيراً ودسست النقود فى يد الشبح وسرعان ما سلمنى « الأثواب » الثلاثة .

لا تقل أننى كنت واهما ، وأن ما رأيته لم يكن سوى أضغاث أحلام .. فلا أظن هناك دليلا على أن الأمر كان حقيقة واضحة أكثر من هاته الجلاليب التى يرتديها كل من فى الدار .

☆ ☆ ☆

وانتهى « الحاجعلى » من قصته ، وأخذت أفكر جيداً .. وتذكرت رجلا عرض علىّ ذات ليلة عينة من قماش لديه منه بضعة أثواب بسعر رخيص وتذكرت أن عينة القماش لم تكن تختلف كثيراً عن هذا القماش .. ولم أشك وقتذاك أن القماش

الذى لدى الرجـــل
مسروق ، وأنه يبيعـه
خفية ولذلك أعرضت
عنه .

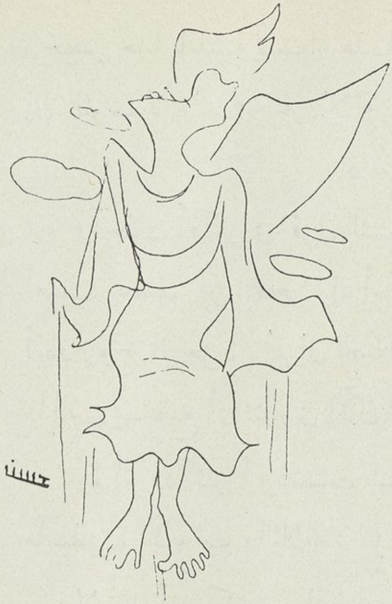

ترى هل كان الرجل
شبحاً، أم أن «الحاجعلى»
الذى خدع الناس جميعاً
قد استطاع الرجل أن
يخـدعه أخيراً فجعـله
«يطب» ، ويبتـاع الثلاثة أثواب المسروقة ! .

علم ذلك عند ربى ، وعند « التعميرة » التى كان « الحاج »
يشد منها نفساً بعد نفس .

... فنظرت أمامي فتملكني دهش شديد لقد وجدت تغييراً كاملا فى كل ما يحيط بي ، وتبدل ما كنت أبصره أمامي تبديلا تاماً .. اني لم أجد نفسي في مكان آخر فحسب .. بل فى زمان آخر .

حياة مزدوجة

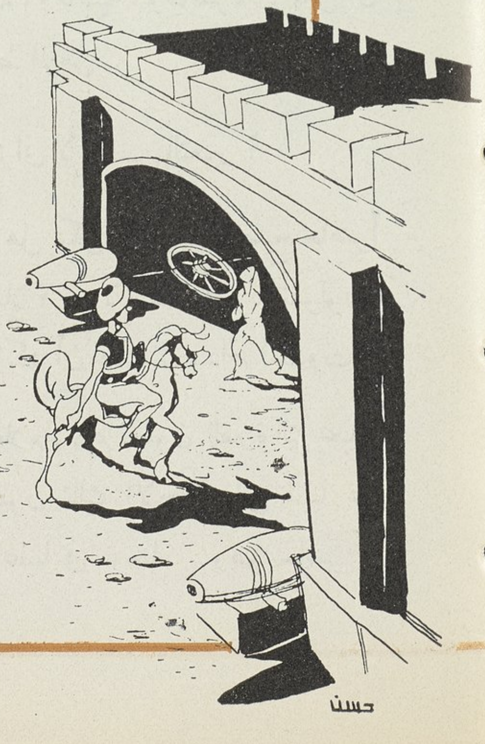

ما الروح

وما الحياة . . وما الموت . . وما الدنيا . . وما الآخرة . . وما الزمن ؟ أهو ذلك الشيء الذى يبدو لنا كسيل دائم التدفق ، ينبع من المستقبل المجهول ، ويجرى فى وهاد الحاضر الذى نعيش فيه . . ثم يصب فى الماضى الخفى ليذهب إلى غير عودة . أو أن أقسام الزمن الثلاثة : المستقبل والحاضر والماضى يمكن تشبيهها بأشياء مجسدة ، ويمكنها التحرك فى أى اتجاه كما يتحرك أى كائن ملموس . . فأى حدث من أحداث الحياة بأوضاعه الثلاث : مستقبله ، وماضيه ، وحاضره . . يمكن أن يتحرك فى أى اتجاه فى محيط الزمن .

أواضح قولى . . أم ترانى لا أحسن التعبير ؟

لكى أوضح أكثر . . هل يمكن للماضى أن يصبح حاضراً وللحاضر أن يصبح مستقبلا ؟ . . لا تتعجلوا الرد فتقولون : لا . . لأنى أستطيع أن أؤكد أن ذلك شيء دائم الحدوث .

وفيما لا تعللون الأحلام . . بم تعللون الفترة التى يحياها النائم فى ماضيه ؟ وبم تعللون تلك الأحلام التى تنبئنا عن المستقبل ، والتى تعرض علينا فى نومنا . . وهو حاضر . .

أحداث لن تتخذ مكانهـا فى ميدان الزمن إلا بعد أيام أو أشهر .

أليس هـذا هو تحرك عكسى للأحداث فى محيط الزمن من المستقبل إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى الماضى .

هـذا شىء دائم الحدوث فى الأحلام . . ليس فيه ما يثير الدهشة ، ولـكن ما رأيكم إذا ما حدث هذا فى اليقظة ، فعاش الإنسان فترة من الماضى وهو يقظان .

أمر عجيب . . أعيانى تفسيره ! . . فقد حدث لصاحب لى كان يحيا حياتين : حياة حاضرة ، وحياة ماضية .

إليـكم قصته ، سأسردها كما هى . . إن ذهنى البشرى أعجز من أن يكشف غوامضها أو يجد لها تعليلا .

* * *

وقع النبأ علىّ وقع الصاعقة . . فما خطر لى على بال قط أن صاحبي « توفيق المهندس » يمكن أن يقدم على جريمة قتل ! . ولست أشك — إذا ما وصفته لـكم كما عرفته منذ عشرات السنين — أن الدهشة ستتملـكـكم ، كما تملـكتنى ، وأنكم ستتساءلون معى . . كيف أقدم على ارتكابها ؟ و لِمَ ؟ وتحت أية ظروف ؟

هو إنسان عاقل متزن ، أميل إلى الصمت ، مسالماً بطبيعته

يصعب عليك أن تثيره ، أو قل يستحيل إثارته أو إغضابه . . فما رأيته قط غاضباً أو ثائراً . . بل يوافقك على كل ماتقول تجنباً منه للنقاش والحديث . . إذا سألته أجابك بقدر ما يمكن من الاختصار . . إن لم يكن بهزة من رأسه .

عرفته خلال الطفولة والصبا والشباب . . فلم أجده مرة واحدة يخرج من حلمه وهدوئه وصمته . . فقد كانت تلك هى طريقة خلقه وتكوينه . . ولم تكن شيئاً مكتسباً من السن أو التجربة . . أو نتيجة لصدمة من صدمات الحياة .

عشرون سنة . . لم أفارقه خلالها ، وهو هو ، ما أغضبته غباوة خادم . . أو إهانة رئيس ، ولا ضاق بمزحه ثقيل أو ثرثرة ماجن . . بل تعينه سعة صدره على أن يلقى الحياة وسخافاتها بابتسامة هادئة ونفس قريرة .

تصوروا بعد كل ماأعرفه عنه .. أسمع فجأة أنه قد ارتكب جريمة قتل ! وقتل من ! ؟ خادمه العجوز « عم محمد » الرجل الطيب الهادىء . . المخلص الأمين . . الذى اصطحبه منذ أن حضر من بلدته إلى القاهرة للدراسة ، والذى أمضى السنون الطويلة فى خدمته دون أن أسمعه يشكو منه قط . . بل كان أشبه بالأب ، والأم ، والزوجة ، وكان يقوم له بكل ما يلزمه ويقضى كل حوائجه .

لقد كان القتل آخر مايمكن أن ينتظر من صاحبى . . ومع ذلك فقد تجبر الظروف أى إنسان مهما بلغ من الهدوء والاتزان على أن يقدم على القتل . . قتل لص هاجمه فى الليل وأرغمه على أن يرد العدوان عن نفسه بقتله . . أو قتل فى ثورة غضب لشرف مثلوم . . أو أى ظرف من الظروف الطارئة التى قد تودى بنا جميعاً إلى ارتكاب القتل .

أقول إن العذر قد يلتمس لصاحبى المتزن العاقل لو أنه أقدم على جريمة قتل من هذا النوع . . الذى لاتجدى فى دفعه حكمة ولا عقل . . ولكن أى عذر هناك . . فى أن يقدم على قتل الخادم العجوز المسكين .

ولقد بدا لى فى أول الأمر . . أن الحادث قد يكون فيه سوء فهم أو التباس . وأن صاحبى قد يكون بريئاً من كل ما اتهم به . ولكنى عند ماعرفت تفاصيل الحادث أدركت أن الأدلة كلها تكاد تجزم بأنه القاتل .

كانت الواقعة تتلخص فى أن بواب البيت الذى يقطن فيه صاحبى أقلقه قبيل الظهر ألا يجد أثراً للخادم العجوز وهو الذى تعود أن يهبط إليه كل صباح ليبتاع الفول والفطار لسيده ، ثم يخرج بعد ذلك للسوق لشراء الخضروات واللحم لتجهيز الغذاء . . وقد يجد من وقته فسحة للدردشة معه

وشرب فنجان من القهوة ما بين الفطار والغذاء .

وتذكر البواب أنه قد شاهد «توفيق افندى» يهبط الدرج مسرعا فى حوالى الساعة الحادية عشر مساء عند ما كان يوشك أن يستلقى فى فراشه فى غرفته الخشبية الكائنة أسفل السلم . ولم يذكر بعد ذلك أنه أحس بعودته .

واستنتج أن « توفيق افندى » ربما قد قضى الليل خارج الدار ، وأن « عم محمد » قد طال نومه فلم يجد بدأ من أن يطرق الباب ليوقظه .

وطرق الرجل الباب فلم يسمع إلا صدى طرقاته . واشتد الطرق بلا جدوى . فتملكه القلق . . وأحس بأن شيئاً غير عادى لا بد أن يكون قد حدث وأوجس فى نفسه خيفة .

ونظر من ثقب الباب فسرت فى جسده رجفة . إذ بدا له كأن هناك جسداً مسجى بجوار الحائط فى أقصى الغرفة . . . وتراجع فى ذعر ثم انطلق من الدار صائحاً وأبلغ أول من صادفه من سكان الدور المجاورة وأصحاب الحوانيت . وبعد برهة كانت الشرطة والناس قد تكأكأوا حول البيت .

وفتح باب الدار ، فإذا بالخادم ملقى على الأرض جثة

هامدة ، وقد هشمت رأسه بضربة من عصا غليظة ملقاة بجواره بدت عليها آثار دماء .

وكانت ملامح القتيل بدا عليهـا دهش شديد .

واستطاع البواب أن يجزم أن العصا هى عصا « توفيق افندى » ، وأدلى بشهادته التى تتلخص فى أنه لم يشاهد من السيد والخادم إلا كل ما تعود أن يشاهد يوميا ، وأن كليهما آوى إلى الدار قبيل العشاء ، وأنه شاهد السيد بعد ساعتين ، أو ثلاثة يهبط الدرج وقد اندفع من الباب فى عجلة شديدة ، ولـكنه لم يخطر بباله قط أن هناك جريمة قتل قد ارتكبت . . فما حدث ما يثير ريبته أو يوقظ شكوكه وهو لا يعرف هنـاك سببـاً يستدعى أن يقتـل السيد خادمه ، فقـد كان الرجل طيبـاً وكانت العلاقات بين الاثنين على خير ما يرام .

وقرر الطبيب الشرعى أن القتل حدث قبيل الحادية عشر أى فى الساعة التى شوهد فيها « توفيق » يندفع من الدار ، ولم يستطع المحقق أن يستدل على أن أحداً دخل البيت غير الرجل والخـادم . . وهكذا ثبتت التهمة على « توفيق » ولم يبق هناك مجال للشك فى أحد غيره ، خاصة وأنه قد ولى فراراً ولم يظهر له أثر بعد ارتكاب الجريمة !..

أمر عجيب ! !

إن التحقيق قد أثبت أن « توفيق » هو القاتل . وأنه ضرب الخادم بعصاه ضربة أفضت إلى موته ثم فرّ هارباً .

ولكن لِمَ يقتله ؟ . . وأين هو الآن ؟ . .

إن المسألة رغم أن التحقيق استطاع إثباتها بسهولة . . . تبدو عويصة محيرة . فأنا أدرى الناس بصاحبي . إنه لا يستطيع أن يقدم على قتل حشرة ، وهو ليس بالإنسان الأحمق الذى يثيره خطأ خادم إلى حد أن يتهوّر فى ضربه ضربة ترديه صريعاً .

لا . . لا . . إنى أقسم أن « توفيق » لا يمكن أن يكون القاتل . . فلا بد أن تكون هناك ظروفاً خفية أحاطت بالجريمة . . ظروفاً يعرفها هو ، ويستطيع لو أظهرها أن يبرىء نفسه مما اتهموه به .

ولكن أين هو ؟ ولِمَ اختفى ؟ . وماذا يخشى إذا كان لم يرتكب الجريمة ؟ إنى موقن أنى لو التقيت به لاعترف لى بكل ما حدث . فهو يثق بى ثقة عمياء ، ولا يركن إلى أحد سواى ، ولا يستطيع أن يخفى عنى شيئاً .

ونشر الحادث فى الصحف تحت عنوان « مهندس يقتل خادمه ويفر هارباً » ، وأعلن أن البوليس جاد فى البحث عن القاتل الهارب .

وعدت إلى البيت ورأسى يصطخب بتلك المسألة المحيرة .

ومضى اليوم وأنا أحاول عبثاً أن أجد تعليلا منطقياً معقولا لشىء مما حدث .

إنى أجزم أن « توفيق » ليس القاتل ؟ من هو القاتل إذاً ؟ . ولِمَ لاذ « توفيق » بالهرب ؟ وأى إنسان على وجه الأرض يمكن أن يكون له مصلحة فى قتل العجوز المسكين ؟

وبتلك الأفكار الحائرة والأسئلة التى لا تجد جواباً شافياً. آويت إلى مضجعى . . ولم أك أتوقع بالطبع أن يتسلل النوم إلى عينى بسهولة ولكنى فقط كنت أريد أن أريح جسدى . . وهكذا رقدت على الفراش وقد انتابنى أرق شديد وتنبهت كل حواسى . عند ما سمعت فجأة طرقاً على الباب .

وكان الطرق من الخفة بحيث تخيلت أننى واهم فيما سمعت .

ومضت برهة ليست بالقصيرة دون أن أسمع شيئاً حتى كدت أجزم أن الطرقات لم تكن سوى خداع سمع .

ولكن . . . مرة ثانية ، عادت الطرقات . خفيفة مترددة . . كأن صاحبها يسترق الطرق . . أو كأنه يخشى أن يسمعه أحد سواى .

ونهضت فى حذر ، واقتربت من الباب ببطء ووقفت وراءه لحظة وحاولت جهدى أن أتغلب على تلك الرجفة التى أصابتنى .

فقد كانت أعصابى متعبة مكدودة . وتساءلت فى صوت لا يخلو من الفزع :

— من ؟

وأجابنى صوت خفيض :

— أنا . . افتح . . .

إنه هو ! ! . هو بعينه ! . صوت توفيق . الهادى الأجش العميق . . وأنصت برهة . . وتلفت حولى . . فلم أجد أحداً فى الدار قد استيقظ على صوت الطرقات سواى . . وتقدمت خطوة إلى الباب ومددت يدى إلى المزلاج فرفعته وفتحت الباب وهمست :

— ادخل .

ودخل صاحبى . واستطعت أن أميز وجهه على ضوء المصباح « السهارى » الباهت . فهالنى ما وجدت به من شحوب وإنهاك . ووجدته يترنح فى مشيته كأن ساقيه لا تستطيعان حمله ، فأمسكت بذراعه وقدته إلى حجرتى . . فارتمى فى إعياء على إحدى الأرائك .

وأغلقت باب الحجرة بهدوء . ووقفت أتأمله وقد أغمض عينيه وتلاحقت أنفاسه وأخذ صدره يعلو ويهبط ، وأمسكت بيده وسألته :

— مابك .. بماذا تشعر ؟

— لا شيء ... فقط متعب وجائع ... ومحطم الأعصاب.

وتركته وذهبت إلى المطبخ لآتى له بشيء يسد رمقه ...

وتواترت الأفكار على رأسى فى سرعة البرق :

إنى واثق أنه برىء مما اتهم به . ولقد أتى إلىّ لأنى ملجأه الوحيد .. ولأنه ليس له صديق يعتمد عليه سواى . . ولا شك أنى يجب أن أعاونه على إثبات براءته . . ولكن هب أنه ليس بريئاً ؟ . . وأنه القاتل فعلا ، وأنه أتى إلىّ فاراً من وجه العدالة . . وأنه يطلب منى أن أخفيه عن أعين البوليس ... ماذا يكون موقفى حياله ؟

هل من العقل أن نعاون قاتلا على الهرب من وجه العدالة؟ ثم إلى متى أستطيع إخفائه ؟ . وماذا يكون موقفى إذا ماضبط وثبت أنى عاونته على الاختباء ؟

ولكنى كيف تطاوعنى نفسى على أن أبلغ عنه ؟ . . . وكيف أستطيع أن أتخلى عنه وقد ركن إلىّ وطلب معاونتى؟

ولكن لِمَ كل هذه الفروض ، وأنا أكاد أجزم أنه برىء .

وعدت إليه ببعض الطعام وكوب من الماء . . فتناول الماء منى بلهفة وجرع الكوب مرة واحدة ، وكان قد هدأ

بعض الشيء . . وجلست أرقبه فى صمت وهو يزدرد الطعام حتى انتهى منه ، وسألته فى قلق :

— قص علىّ ماحدث . . إنك بالطبع لم تقتل الرجل .

وأطرق برأسه . . ومضت برهة طويلة وقد بدت عليه الحيرة والتردد ، ووجدته يجيبنى ، وهو يهز رأسه فى يأس شديد :

— لا أستطيع أن أجيبك بمثل هذه السهولة . . إن المسألة ليست من البساطة كما يمكن أن تتصور . . أنا لا أستطيع أن أجيب بأنى قتلت أو لم أقتل . ولا أكاد أعرف أنا نفسى إذا كنت بريئاً أم مذنباً . . إنها مسألة معقدة ملتوية ، وقبل أن أجيب عن سؤالك عما إذا كنت قتلت الرجل أم لا ، يلزم أن أوضح لك جلية الأمر . . وأروى لك الظروف الملابسة له ، ثم أسألك عما إذا كنت قاتلا أم لا . أنت تعرف مبلغ ثقتى بك ، وأنى أعتبرك كنفسى . . سأروى لك كل شىء بالتفصيل . وكل ما أرجوه منك أن تصدقنى . . ولا تتهمنى أننى واهم أو مجنون . . لقد كنت أود أن أقص عليك الأمر عند بدء حدوثه ، ولكنى خشيت ألا تصدقنى . . وفضلت أن أطويه فى صدرى ما دام ليس هناك ضرر فى ذلك . فقد كنت أجد فيه شيئاً خاصاً ان يتعدى دائرة نفسى . . ولا مبرر لأن أفصح عنه لأحد ، خاصة وأنه شىء لا يقره العقل .

ولو أنى سمعت هذا القول من إنسان آخر غيره فى مثل ظروفه . . لشككت كثيراً فى سلامة عقله . . ولظننت به اضطراب فى الذهن والأعصاب . . ولوجدت فى قوله تخبطاً منشأه ذلك الإجهاد الذى حطَّم قواه .

أجل لقد كنت أتوقع أن تكون إجابته لى قاطعة جازمة بأنه لم يقتل الرجل . . ثم يأخذ بعد ذلك فى سرد الظروف المحيطة . . لا أن يقول لى أنه لا يدرى هو نفسه إن كان قتل الرجل أم لم يقتله ، ولا يعلم إذا كان بريئاً أم مذنباً ، وأنه يسألنى أنا لكى أجيب عنه .

أقول أنى لو كنت سمعت هذا القول من أى إنسان لاتهمته بالجنون . . ولكن « توفيق » لم يكن الشخص الذى يسهل علىّ اتهامه بالجنون . . فقد ألقى إلىّ قوله بطريقته الهادئة المتزنة التى توحى إلى السامع بالثقة فى كل ما يقال له بحيث لا يدع له مجالا لريبة أو موضعاً لشك .

وقلت له متسائلا :

— عجيب ! إنك لا تعرف إذا كنت قتلته أم لا !

— إنى فى الواقع قد قتلت . . ولكنى لم أقتله هو . . بل قتلت إنساناً لا أعاقب على قتله . . أو على الأقل ، لا يمكن أن أعاقب على قتله فى زمننا هذا . . أللهم إلا إذا كان الإنسان

يمكن أن يعـاقب على قتل الأموات . . وأى أموات ؟ . . أموات تواروا فى باطن الأرض منذ مئـات الأعوام . . ولم يبق منهم إلا رماد عظام لا تـكاد تميزه من أديم الأرض ؟ . .

وصمت برهة يفـكر . . ثم رفع رأسه وسألنى فجأة :

ــ اسمع . . هل يمكن أن يعاقبك أحد فى أيامنـا هذه على أن قتلت كليبر ، أو نابليون بونابرت ! .

ــ نابليون بونابرت ؟ . . . أنا أعاقب على قتل نابليون بونابرت ؟ .

ــ أنت ، أو أنا . . أو أى إنسان ! .

ــ طبعاً لا . . . لسبب بسيط ، هو أنه ليس هنـاك من يستطيع قتـل نابليون بونابرت . . ولا أحقـر جندى من جنود بونابرت . . لأنهم قد أضحوا شيئاً غير كائن .

ــ انتهينـا . . . إذاً فليس هناك من يستطيع معـاقبتى على الجريمة التى ارتـكبت .

ــ ولـكن القتيل ليس بونابرت . . وليس كليبر . . بل هو « عم محمد » الخادم الذى كان بالأمس إنساناً يتحرك من دم ولحم . . لا عظام فى باطن الأرض ، ولا أديم ولا رماد .

— ولكنى لم أقتل « عم محمد » فليس هناك قط ما يدعونى إلى قتله . . إنه أكثر الناس نفعاً لى . . ولست أتصور كيف يمكن أن تجرى حياتى بدونه . . كيف آكل . . كيف ألبس . . أنا أقتل « عم محمد » . . لما . .

— أنا لم أقل أنك قتلت « عم محمد » . . ولكنى قلت أن القتيل . . الذى أريق دمه . . والذى طرحت جثته مسجاة على الأرض بلا حراك . . هو « عم محمد » .

— القتيل هو « عم محمد » . . هذا هو المصاب . . وتلك هى العقدة . . إن الذى قتلته لم يكن « عم محمد » . . ولكن الذى قتل فعلا هو « عم محمد » .

وأطرق صاحبى برأسه ، واستغرق فى تفكير عميق . . ثم قال بعد لحظة :

— حسناً . . دعنى أروى لك المسألة من أولها . . ثم خبرنى عن رأيك فى النهاية ، وقل إذا ما كنت بريئاً أم مذنباً .

بدأ الأمر ذات يوم قبيل الغروب ، وقد جلست فى شرفة الدار مستلقياً فى أحد المقاعد الطويلة المريحة أرقب قرص الشمس الملتهب يهبط فى الأفق البعيد رويداً رويداً ، وقد خلف وراءه ذيول الشفق الأحمر تبعث بأشعتها الأرجوانية

متخللة أوراق الأشجار المترامية فى حديقة الدار وفى حدائق الدور المجاورة .

وأخذت أحملق فى رؤوس الأشجار الملتهبة كأنها فوهات براكين .. وبدا لى كأن بصرى قد ثبت فيها لا يستطيع عنها حولا .. وأحسست بتبلد فى الذهن ، واسترخاء فى الأعضاء .. وانتابنى شعور الذى يقع تحت تأثير مخدر .. وبدت لى المناظر التى أمامى تتلاشى رويداً رويداً .. وفجأة أحسست بيقظة تماماً .. ووضح كل شىء أمامى تماماً ، كما يحدث عندما نكون فى ظلمة دامسة ، ثم تضغط زر كهربائى فيغمرنا النور مرة واحدة ، ونظرت أمامى فتملكنى دهش شديد .. لقد وجدت تغيراً كاملا فى كل ما يحيط بى ... وتبدل كل ما كنت أبصره أمامى تبدلا تاماً .. إنى لم أجد نفسى فى مكان آخر فحسب .. بل فى زمان آخر .

أجل إن ما أبصرته لا يمكن أن يكون فى زمننا هذا .

لقد وجدت نفسى أجلس فى « مشربية » ملونة بالزجاج بديعة الزخارف تدلى من سقفها ـ لا مصباح كهربائى ـ بل قنديل زيتى دقيق الصنع .

وبدت لى الدور المقابلة لا يكاد يفصل بينى وبينها إلا بضع خطوات وقد ضاق الطريق بيننا ، وأطللت من نافذة « المشربية »

فإذا بالطريق يغص بالمارة ، وقد قامت على جانبيه الحوانيت المزدحمة .

هل تعرف تلك الطرقات الضيقة التى تحيط بمدرسة « السنية » فى حى « السيدة » ، أو تلك التى تتفرع من « باب الفتوح » ؟ . . أو « بوابة المتولى » ؟ .

كان المكان يشبه إلى حد كبير تلك الطرقات . . مع فارق فى أزياء الناس الذين يعيشون فيه . وأبصرت المارة وأصحاب الحوانيت يرتدون العمائم الضخمة ، « والقفاطين » ذات السراويل ، والمراكيب الحمراء المدببة .

وأوحى إلىّ ذلك المنظر الذى رأيته ـ منظر الدور ، والطريق ، والناس . . ثم منظرى أنا نفسى . . وقد لمحت ساقى تنتعلان « المركوب إياه » و « السروال الفضفاض » بأنى أعيش فى زمن غابر ، غير ذلك الزمن الذى تعوّدت أن أحيا فيه .

وهبطت الدرج الحجرى بعد أن وضعت « العمامة » على رأسى ، وسرت بين الناس فى الطرقات . . فلم أجد أثراً لترام ، أو سيارة . . بل خيل مطهمة . وعربات ، وحمير .

ورأيت الناس يتحدثون : بأن الوالى قد أمر بأن يعلق على كل باب ، مصباح ، ووجدت بينهم حالة من التذمر ،

ولا أطيل عليك الحديث . فقد أدركت بسهولة مما أبصرت من مناظر وسمعت من أحاديث أننى أعيش فى عهد « محمد على » الكبير .

وإنى أذكر أن ما كان يشغل الناس يومذاك هو أنباء الحملة التى ينوى الوالى توجيهها إلى « الوهابيين » تحت إمرة ابنه « طوسون » . . وكان يتحدثون عن السفن التى تم بناؤها والجيوش التى تم حشدها ، وتموينها بالمهمات والأسلحة والذخائر .

وعدت إلى الدار عقب جولة فى الطرق المجاورة ، وجلست مرة أخرى فى مقعدى حيث كنت أجلس ، وبعد لحظة أحسست بنفس التبلد ، والاسترخاء ، وأخذت المناظر تتلاشى بالتدريج ، ومرة واحدة أضيئت الأنوار ، فإذا بى حيث كنت .

* * *

وصمت صاحبى برهة . . ووجدته يجيب على نظراتى المتشككة قائلا :

— حسناً . . قد يبدو لك هذا مجرد حلم . . وإننى أغفيت إغفاءة طويلة وأنا جالس فى مقعدى . . ولقد كان هذا فعلا هو ما تصورته . . حتى حدث بعد بضعة أيام أن تكرر

الأمر مرة ثانية ، بنفس الطريقة ، وإذا بى أجد نفسى مرة أخرى : أعيش فى قرن مضى .

لا أظننى أستطيع إقناعك بمجرد أن أطلب منك أن تثق فى صحة قولى . . وأن تصدق أن ما كان يحدث لى هو شيء أكثر من الأحلام . . هو انتقال فعلى من حياة إلى حياة . . وأن الحوادث كانت تمر بى فى الحياة الأخرى بنفس الترتيب المنتظم الذى يتبع مرور الأيام . . بمعنى أننى إذا انتقلت إليها اليوم مثلا . . ثم انتقلت إليها بعد ذلك بيومين ، فإنى أجد أنه قد حدث بها من الحوادث ما يقع فى يومين ، وذلك يؤكد أن ما كنت أبصره فيها هو حياة مستمرة ، وليست مجرد مناظر متقطعة . قد يداخلك الشك فى صحة قولى ، ولكنى أستطيع أن أذكر لك من التفاصيل ما يثبت لك بوجه قاطع أننى عشت فعلا فى ذلك العصر . أنت تعلم أننى مهندس ، وأننى لم أدرس من التاريخ إلا ما درسناه سوياً فى « مدرسة الخديوية » ، والذى لا يعدو أن يكون سرداً سطحياً لتولية « محمد على » الحكم وفتوحاته وإصلاحاته ، أما التفاصيل الدقيقة عن الحياة فى ذلك العصر . . والتى قد تعرف أنت عنها الشيء الكثير بحكم مهنتك كمدرس للتاريخ ، فإنى أجهل الناس بها .

وهززت رأسى بالموافقة ، ووجدت نفسى أنصت إليه فى لهفة .. وأطلب منه أن يذكر لى تلك التفاصيل ، وبدأ يصف لى الطرقات ، والناس ، وذكر لى كيف أبصر شاطىء النيل فى المكان الذى تقوم فيه بولاق ، والمطبعة الأميرية ، وقد تحول إلى ترسانة لصنع السفن .. وذكر لى أن أطراف المدينة كانت تقوم عند العباسية ، وأن المكان المفروض فيه أنه القبة الآن .. كان ميداناً للتعبئة ، وحشد الجنود ، وأخذ يصف لى تفاصيل دقيقة عن الحياة فى ذلك الوقت ، ويصف لى الطرقات ، والميادين ، والدور ، والحوانيت ... وكيف أبصر ميدان السيدة ، والحسين .

ونظرت إليه مشدوهاً مأخوذاً .. فأنا أدرى الناس بصحة كل ما قال .. فلقد درست ذلك العهد جيداً وقرأت الكثير عنه ، وكان كل ما قال صحيحاً مائة فى المائة .. كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ وفجأة خطر لى خاطر خلت أنه كشف لى عن جلية الأمر .

وهززت رأسى وقلت لصاحبى كأننى قد حللت اللغز . !

– هل قرأت تاريخ الجبرتى ؟

فنظر إلىّ فى غبطة وأجاب متعجباً :

– جبرتى ؟ ! .. أنا أقرأ تاريخ الجبرتى ؟ .. ألدىّ وقت لكى أقرأ الجبرتى .

– ولا تاريخ الحركة القومية للرافعى ؟

– لاداعى لهذه الأسئلة .. يجب عليك أن تثق بى ، وتصدق كل ما أقول .

– إنى أثق بك وأصدق ما تقول .. ولكنى أريد أن أجد تعليلا لما حدث لك .. ومبرراً .. لأن تعرف فى غيبوبة كل هذه المعلومات الدقيقة . إذا كنت لم تقرأ شيئاً من هذا .. فإن المسألة لا شك خارقة للعادة .

وساد الصمت بيننا برهة .. ووجدتنى أستغرق فى التفكير .

هذا الرجل الجالس أمامى .. قد أمكنه أن يعيش فى قرن مضى .. إن معلوماته لا شك أدق من الجبرتى ، ومن أى مؤرخ كتب عن عصر « محمد على » .. إنه أبصر « محمد على » ، أو يستطيع إبصاره .

وسألته فى لهفة :

– هل رأيت « محمد على » ؟

– رأيته مرة يمر بعربته من أحد الطرق ولمحت جانب وجهه .

– والنقيب عمر مكرم ؟

– رأيته خارجاً من سيدنا الحسين فى جمهرة من الناس .

– ومن رأيت من رجال التاريخ غير هؤلاء .. حدثنى بالتفصيل كيف وجدتهم .

ولكنه هز رأسه .. ولم يبد عليه أنه يهتم كثيراً برجال التاريخ وأجاب بعد برهة صمت :

– يجب أن تذكر أنى لم أعش فى حياتى تلك كمؤرخ .. ولم أكن أهتم كثيراً بأن أعدو وراء هؤلاء المشاهير لأبصرهم كيف يبدون ، ولا ماذا يرتدون .. لقد كنت فرداً عادياً وكانت لى حياتى الخاصة التى أهتم بها .

– ولكن هل كان من حولك يحسون بك ؟

– طبعاً .. هل تظننى كنت بينهم شبحاً ؟

– وكيف كانت علاقتك بهم ؟ ..

– هذا ما أنوى قصه عليك .. إن تلك العلاقات هى التى أدت إلى المشكلة التى أغرقت نفسى فيها .. سأقص عليك كيف بدأت .. لقد تعودت أن أجلس عند ما أندفع فى حياتى الأخرى على مقهى بجوار « باب الفتوح » ، وصاحبت من رواد المقهى رجلين من كبار التجار « حسن الخيمى » و « عبد الرؤوف الدخاخنى » ، وفى ذات يوم ، وقد اندمجت فى حياتى الغابرة ، وجلست على المقهى بينهم دعانى « الخيمى » إلى تناول الغذاء معه .. وترددت برهة ، ولكنه ألح علىّ

فقبلت . وذهبت إلى داره .. دار فخمة البناء ، فاخرة الرياش ، ومد السماط . . فتناولنا من الطعام مالذ وطاب ، ثم تمددنا على المراتب نحتسى القهوة .

وانتهينا من القهوة . . وسألنى مضيفى إن كنت أود أن أرى مستقبلى فى الفنجان . . فأجبته بالموافقة . . فنادى على الساقى وطلب منه أن يرسل عائشة . . ثم التفت إلىّ قائلا :

— إن ابنتى « عائشة » خير من أن يقرأ الفنجان . . لقد علمتها القراءة جارية عجوز تولت تربيتها بعد أن ماتت أمها .

وبعد برهة أقبلت عائشة ! ! .

أجل . . أقبلت « عائشة » فأحسست أن قلبى يكاد يقفز من بين أضلعى .

لقد أحببت بضع مرات فى حياتى هذه . . ورأيت كثيرات من أنواع النساء . . ولكنى لا أذكر قط أن مخلوقاً استطاع أن يفعل بى كما فعلت عائشة .

لا أريد أن أضيع الوقت فى وصفها لك . . فليس هذا مجال غزل وتشبيب ، ولتكن ماتكون . . المهم .. هو ماتركته من أثر فى نفسى . . لقد أحسست أنها سرت فى دمى وأنى قد أصابنى من سحرها نشوة عجيبة .

حسن

وقرأت لى الفنجان .. ولم أسمع بالطبع مما قالت شيئاً .. وعدت إلى الدار وأنا شبه ثمل .

وعندما عدت إلى حياتى هذه .. وجدت أن الشىء الوحيد الذى استطاع أن يعلق فى نفسى من حياتى الأخرى ، هو : عائشة .

وتعوّدت بعد ذلك أن أراها فى كل مرة أعود فيها إلى حياتى الماضية .. بل لقد أخذت أتعجل العودة إلى تلك الحياة وأفضلها عن هذه الحياة .

وتطور الأمر إلى حب متبادل بيننا .. واستطعت ذات مرة أن أخلو وإياها واعترف كل منا بحبه للآخر .

وصممت على أن أتقدم لخطبتها .. عندما فوجئت ذات يوم بأن « عبد الرءوف الدخاخنى » قد خطبها .

وأحسست كأنما مستنى صاعقة .. وعلمت أن أباها قد رضى به لأنه سينقذه من الإفلاس .. ووجدت أن الطير قد أفلت من يدى .. أو هو يوشك أن يفلت .

وتملكنى ما يشبه الجنون ، وصممت على أن أفوز بها بأية طريقة .. حتى ولو كلفنى الحصول عليها .. حياتى ... ما قيمة الحياة بدونها !

والتقيت بها خفية فى حديقة الدار . . فوجدتها قد أذبلها الحزن . . وأنبأتنى أنها لن ترضى بمخلوق سواى ، وأنهم لن يزفوها إلى خطيبها الآخر إلا جثة هامدة ، وافترقنا فى تلك الليلة بعد أن صممنا على أن نهرب سوياً قبل أن يتم الزفاف .

وتركتها وتسللت فى جنح الظلام وهممت بأن أقفز من سور الحديقة عندما أبصرنى الحارس ، وظننى الرجل لصاً . . وصرخ يطلب النجد . . وعدا خلفى بعصاه للحاق بى . . وأخذت أعدو فى الظلمة حتى تعثرت بحجر فوقعت على الأرض ووجدته قد لحق ورفع عصاه ليهوى بها علىّ . . ولكنى نهضت بسرعة ، وأمسكت بالعصا فانتزعتها منه وهويت بها على رأسه فخر على الأرض صريعا .

* * *

وصمت صاحبى برهة طويلة ، ثم رفع رأسه وقد زاغ بصره ، وقال :

ـ هذا هو الرجل الذى قتلته . . رجل كان يعيش منذ مائة عام حاول قتلى . . فدافعت عن نفسى بقتله . . ولكنى عندما عدت لحياتى هذه ، وجدت أن القتيل لم يكن سوى « عم محمد » .

ولم يكن أمامى خير من الفرار .. لا لأننى أخشى أن أتهم بقتله .. بل لأنى لا أريد أن يشغلنى شىء عن إنقاذها .. أجل .. لقد أضحت المسألة .. مسألة حياتها أو موتها .. فهى مصممة على ألا تزف إليه إلا وهى جثة هامدة ولا بد لى من إنقاذها .

ومرة أخرى عاد إلى صمته ، ووجدت ذهني يضطرب بما فيه .

إن صاحبي فى حالة عجيبة لم يسبق لها مثيل . . إنه يريد أن ينقذ حياة امرأة ماتت منذ مائة سنة . . ويريد أن ينقذها من زوج لا شك أنها قد تزوجته . . أو تزوجت غيره ، فهو لن يغير فى التاريخ الواقع شيئاً . . لأن ما حدث لا شك قد حدث .

لقد حاول أن يعيد الماضى . . وأراد أن يفعل شيئاً يستحيل فعله . . وينقذ تلك المرأة مهما بذل من حول وقوة . . ولكن أنى له ذلك .

ثم أخذ يهذى كالمحموم الذى تغلبت عليه وطأة المرض . .

وحاولت تهدئته وإفهامه أنه مهما كان من صحة قوله فهو يعشق إنسانة غير كائنة ، وأن حالته تلك قد سببت له أن يرتكب فى الحياة الأخرى حوادث وهمية . . تظهر نتيجتها الفعلية فى حياته هذه . . وأن القانون لا يمكن أن

يعفيه من تهمة قتل « عم محمد » إلا تحت ظرف .. وهو أنه مجنون .

وطلبت منه أن يكف عن حياته الأخرى ، لأنه فى محاولته إنقاذ صاحبته مرة أخرى قد يرتكب جريمة قتل أخرى أو من يدرى .. قد يقتله الحراس فى الحياة الأخرى فماذا تكون النتيجة فى حياته هذه !

وأخيراً طلبت منه أن يهدأ ويستريح .. وأن يترك المسألة للصباح .. فعسى أن يهبنا الله من لدنه رحمة .. ويهيء لنا من أمرنا رشدا .

☆ ☆ ☆

ولكنى عند ما استيقظت فى الصباح لم أجده .. وبعد برهة علمت أنه قد عاد إلى داره .. وأنبئت أن البواب لم يشعر به إلا وهو يهوى من الشرفة فيهبط إلى الطريق جثة هامدة .

وظهرت الصحف لتروى خاتمة الحادث تحت عنوان : « المهندس الذى قتل خادمه ولاذ بالفرار ، ينتحر بإلقاء نفسه من الشرفة » .

ولم يدر إنسان ماذا يمكن أن تحوى تلك الأسطر من حوادث خارقة . . وانطوت بموته حياته المزدوجة . . التى لم يعرف عنها أحد سواى وسواه .

ترى كيف كانت خاتمته فى الحياة الأخرى . . هل استطاع إنقاذ صاحبته ؟ . .

كانت هناك

ولقد عادت لى بعد ذلك ، لتطاردنى
فى كل مكان ، حتى بت أحس أنى على
وشك الجنون . . ان لم أكن قد أصبحت
بالفعل مجنوناً . . .

.. سيد وخادم .. شدهما الزمن برباط من الود

شخابه متين . وألفت الأيام بين نفسيهما فأصبحا لاغنى لأحدهما عن الآخر .. فهما أشبه بإنسان وظله ..

أما السيد فهو الأستاذ « الدكتور عبد الله الشنوانى » .. أستاذ علم النفس بالجامعة . عالم من كبار العلماء .. المشهود لهم بالعبقرية والنبوغ ووفرة العلم .. يحيطه عارفوه ومريدوه بهالة من الإجلال والتقدير والإكبار ، ويحيط هو نفسه بهالة من الشهادات ذات الأحرف الأفرنجية المتعددة .. التى قلّ أن يفكر فى فك رموزها إنسان .. وهالة أخرى من المؤلفات والمحاضرات التى غمر بها المكتبات والمعاهد .. وهالة ثالثة من الشذوذ والشرود والذهول الذى يلذ للإنسان العادى أن يراه فيمن يتخيلهم أرقى منه .. ولست أظننى مهما حاولت أن أتهكم على الرجل أو أكتب عنه بلهجة ساخرة ، بمستطيع أن أنكر فيه فضلا هو السبب فى كل ما وصل إليه .. وهو فرط الذكاء المقترن بطيب الخلق ، وكرم النفس ، والميل إلى فعل الخير .

ويخيل لى أن الرجل قد وجد أن علم النفس أضحى (مودة) هذا الجيل وأن الانسان من فرط ولعه بنفسه قد أقبل عليها

يحللها ، ويشرحها ، ويقتلها بحثاً وتمحيصاً . . فاتجه إلى دراسة «علم النفس» وبرع فيه ، كما كان لا شك سيبرع فى أى شىء آخر يوليه نفس الانهماك والإقبال . وقفز الرجل من درجة إلى درجة . . ونال الشهادة تلو الشهادة . . وبين عشية وضحاها ، وجد نفسه أستاذاً شهيراً ، وعالماً جليلا .

فإذا ما غضضنا الطرف عن الرجل كعالم وأستاذ ودكتور وتركنا جانباً مؤلفاته ، ومحاضراته ، وشهاداته ، وتلامذته ، ومقدريه ، وعارفى فضله . . . وحاولنا أن نصفه كإنسان عادى . . . وتعقبناه فى عقر داره . . وجدناه قد جلس فى حجرة نومه لينضو عنه ملابسه .

الساعة الثانية بعد الظهر ، والرجل قد عاد من الخارج . . بعد أن انتهى من حضور أحد المؤتمرات . . التى تعقد وتنفض دون أن يفهم هو منها شيئاً . . فهو إما متكلم أو (سرحان) . . ولا تظن بقية الأعضاء خيراً منه ، فكثيراً ما يحتد النقاش بينهم فى أمر هم متفقون عليه . . أو يحاولون إقناع بعضهم بعضاً برأى لم يختلف عليه أحد .

ويبدأ الرجل فى خلع ملابسه وقد وقف بباب الحجرة «عم على الليثى» ، خادمه الأمين أو «الفردة الأخرى» كما كان يحلو لبعض الناس أن يطلقوا عليه . . فهو يكاد يكون صنو

سيده . . بين أحدهما والآخر شبه عجيب . . ولو حلا لأحدهما مرة أن يلبس ثياب الآخر فخرج « عم على » مثلا من الدار مرتدياً بدلة سيده الردنجوت وياقته المنشاة اللتين لا يغيرهما حتى فى هجير بؤونة ، وأمسك بعصاه وتأبط حافظته ، وكبس طربوشه حتى أذنيه . . ووضع على عينيه منظاره السميك . . لما شك أحد فى أن الرجل هو الدكتور « عبد الله » نفسه . أو لو خطر ببال امرىء أن يجردهما من الثياب ووضع كلا منهما أمام أخيه عارياً لتسبب فى مشكلة كبرى . . إذ يصعب أن نميز الخادم من السيد . . ويزيد المشكلة صعوبة أن الأمر لابد سيختلط عليهما فلا يعرف أحدهما من يكون « الليثى » ، ومن يكون « الشنوانى » .

خلع الأستاذ سترته ، وقذف بها على الفراش ، ثم بدأ يفك أزرار البنطلون وتركه يسقط على الأرض ، ثم خلع القميص ورماه على أحد المقاعد . . ووقف فى أرض الحجرة مرتدياً سروالا من الفانلة الصوف غطى ساقيه الرفيعتين حتى القدمين ، وفانلة صوف ذات أكمام طويلة ، ولف وسطه بحزام صوف خمس أو ست مرات ، وعلى رأسه استقر الطربوش ثابتاً على أذنيه .

وكان الشهر وقتذاك شهر يونيه ، والساعة — كما قلنا —

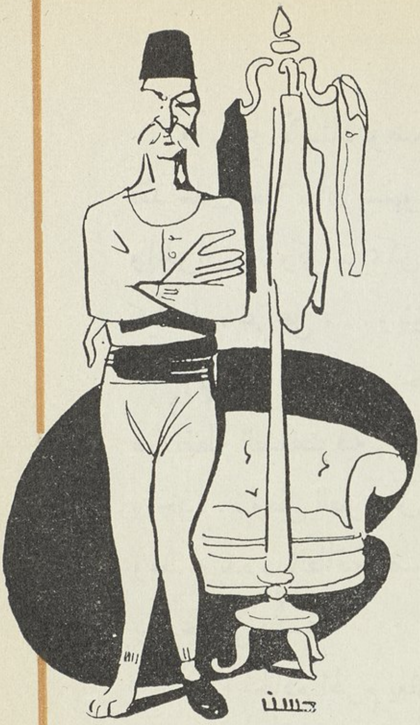

الثانية ظهراً . . ولست أظننى فى حاجة بعد ذلك إلى أن أصف النار الموقدة التى كان يستعر أوارها ، ولا « الشرد » الذى كان يهب من النوافذ فيلفح الأجساد .

ووقف « السيد عبد الله » فى وسط الحجرة وبدا عليه التأفف ، فقد كان الصوف يخز جسده ، ومد « عم على » يده بالجلباب الكستور الثقيل ، وسأله الأستاذ متردداً :

— ألست ترى أن الجو قد دفىء بعض الشىء .. ما رأيك فى أن أخلع الحزام ؟

ولم يجبه « عم على » ولا ظهر عليه حتى أنه قد سمع سؤاله بل دفع إليه بالجلباب وقال له بلهجة حازمة :

— إلبس بسرعة .. والا تستهوى .

وأسرع الأستاذ بوضع الجلباب على جسده بسرعة . . فقد خاف فعلا « أن يستهوى » . . فقد كان فى مسائل والبرد والحرارة . . وكل ما يمكن أن يؤثر على الصحة يعتمد اعتماداً كلياً على « عم على » . . ويثق فيه كل الثقة .

ولم يكن صاحبنا قد خلع بعد طربوشه . . فقد كان رأسه هو نقطة الضعف فيه . . ولم يكن يجسر أن يتركه عارياً لحظة واحدة . . وظل الطربوش جاثماً عليه حتى تعطف « عم على » ومدّ له يده « بالطاقية الصوف » فنزع الطربوش « وكبسها » بسرعة على رأسه .

وبدأ الخادم الهرم يعلق الثياب على المشجب . . وجلس الأستاذ يفرك أصابع قدميه ، ويدفع عصاه فى قفاه فيحك بها ظهره . . ثم سأل الخادم فجأة :

— عم على .

ورفع الخادم إليه عينيه دون أن يجيبه . . واعتبر السيد هذا بمثابة الرد ، وأردف يتم حديثه :

— متى أستحم ؟

رفع « عم على » حاجبيه علامة الدهشة وقال فى حنق :

— ألم تستحم منذ شهرين ؟

— آه . . لقد نسيت .

ولم يكن الرجل قد نسى . . ولـكن لم يجد رداً أسلم عاقبة من هذا . . وعاد فسأله بعد برهة :

— ماذا طبخت اليوم ؟

— قرع .

وبدا الانزعاج الشديد على وجهه . . وقال فى استياء :

— قرع ؟ ! أنا لا أحب القرع .

ونظر إليه « عم على » نظرة رادعة :

— القرع خفيف على معدتك . . القرع المسلوق .

وازداد انزعاج السيد وعاد يكرر :

— قرع مسلوق ؟ ! ولـكن معدتى بخير .

— ليست بخير .

— ولـكنى لا أحس بها ألماً . . إنها بخير .

— وأنا أعلم أنها ليست بخير ، لقد كنت « تتـكرع » كثيراً فى الليلة الماضية .

وهز الأستاذ رأسه وأدرك أنه لا فائدة من المناقشة ، فاتخذ الجانب الآمن . . وأجاب الإجابة التى تقيه الشر :

— آه . . لقد نسيت . . معك حق ، وماذا صنعت حلواً ؟

— بلوظه .

وبدا الاشمئزاز على وجه السيد . . وقال بلهجة المغلوب على أمره :

— كنت أفضل البطاطا . . بطاطا مغمسة فى العسل النحل . . إنها تماما كالمارون جلاسيه . . بل وخير منه .

— هذه أشياء ثقيلة على المعدة . . « هذه رمرمة » .

— معك حق . . إن شاء الله عندما تصح معدتى سنجرب هذه الأكلة . . عند ما تخف معدتى تماما .

ولم يجب « عم على » فقد تحرك خارج الحجرة بعد أن أتم عملية تعليق الملابس وتفريشها .

وجلس الأستاذ يتناول طعامه . . ويدفع بالقرع المسلوق فى جوفه متقززاً متأذياً ، وهو يرقب « عم على » الواقف على باب الحجرة بنصف عين . . وقد تملكه منه حنق شديد . . وطافت برأسه صحبتهما القديمة . . وتذكر صباهما وكيف أرسله أبوه معه من البلد لخدمته والعناية بأمره . . كان ذلك منذ أربعين عاما . . وذهب الإثنان إلى القاهرة . . فاستقر بهما المقام فى إحدى حجرات شارع « ممتاز » بالبغالة . . ومنذ ذلك اليوم لم يفارق أحدهما الآخر لحظة واحدة .

هل من الإنصاف بعد كل هذا أن يوصف « عم على » بأنه كان خادماً له ؟

طبعاً لا . وهو ليس من الضعة وإنكار الجميل بحيث يعتبر الرجل خادماً فقد كان له كل شيء : كان الأب ، وكان الأم ، وكان الزوجة . . وكان الشيء الذى لولاه لما كان هو نفسه . . ولما وصل إلى ما وصل إليه . . لقد كان المشجع ، وكان النصير .

أربعون عاما . . تقلب كلاهما بين يدى الزمن فى رفع وخفض ، وسراء وضراء . . وهما متلازمان متماسكان .

كم سهر بجواره يعينه على الاستذكار تحت ضوء المصباح الغازى الخافت .. وكم أرق لمرضه ، وجاع ليطعمه .. كم تحمل فى سبيله الأذى والضر .

وبدأت الحياة تبتسم وأخذ يرتقى الدرج شيئاً فشيئاً وبدأ يسطع نجمه . . وكان « عم على » يعرف واجبه تماماً ويعرف كيف يدبر أموره ، ويرتقى بالمسكن والملبس ووسائل العيش حتى يجعلها تتناسب دائماً مع مركزه فى الحياة .

ولم يكن هو نفسه له دخل فى هذه الأمور . . بل كان لـ « عم على » سميعاً مطيعاً .. فهو يعتبر أن الرجل ولىّ أمره .

وهكذا وجد نفسه ينتقل من « البغالة » إلى « جنينة ناميش » إلى « جنينة رشيد » إلى « المنيرة » . . ولو كان الأمر بيده ، لظل كما كان ، فى حجرته بالبغالة . . ولظل مداوماً على

الفول والطعمية ، والعسل والطحينة ـ وفى حالات اليسر ـ البيض والعجوة .

أربعون عاما . . لا يستطيع أن يتصور كيف كانت تمر به لولا « عم على » .

وازدرد الرجل آخر قطعة من القرع المسلوق ، وأمسك بالملعقة يدفع بها فى « طبق البالوظة » بمنتهى التبرم والاشمئزاز . ورفع عينيه إلى الرجل الواقف بجوار الباب كأنه تمثال لا يتحرك ورمقه بنظرة حنق وغضب ، وعاد يحدث نفسه :

لقد أضحى الرجل لا يطاق ، وأنه ليكاد يضيق به ذرعا وينسى له فضل الأربعين سنة من فرط ما يسبب له من مضايقات ، ما ضرّه لو استبدل بالقرع بطاطس أو باذنجان ، ثم ماالداعى لهذا الإصرار منه على الحزام الصوفى الذى يثقل به بطنه .

ولكن الذنب ذنبه هو . . فهو المستكين المستسلم ، وهو الجاهل الذى لا يعرف من شؤون الحياة شيئاً . . لِمَ لا يحضر له طباخاً ويحضر له بضعة خدم آخرين . . لقد كبر « عم على » ومن الحمق أن يفرض نفسه عليه مدى الحياة . . إنه قد أضحى هو نفسه فى حاجة إلى من يخدمه ، لقد أضحى مُتَعَباً . . ومتعِباً .

وزاد الطين بلة هذا الصمم الذى أصيب به أخيراً مما يضطره إلى الصياح به بضع مرات حتى يستجيب لندائه .. ولقد تعود الرجل أيضاً أن يحدث نفسه ، وأن يرى أشياء لا يراها سواه ، أشباحاً أو أرواحاً أو شيئاً من هذا القبيل . . ربما خيالات وأوهاما . . وهو يسبب له بذلك إزعاجا شديداً . . حتى أنه ليخشى أن ينتهى الأمر بأحدهما إلى الجنون .

وسمع « عم على » يتمتم لنفسه ببضع كلمات . . فأصابت الأستاذ رجفة شديدة ، ولم يجد خيراً من أن يكلم الرجل حتى يمنعه من الحديث إلى نفسه ، فصاح به :

– عم على . . .

ورفع الرجل بصره ولم يجب . . واستمر الأستاذ :

– سيزورنى اليوم ضيف فى حوالى الخامسة بعد الظهر ، أرجو أن تجهز لنا شاياً .

وصمت لحظة ثم أردف :

– ضيف عزيز ورجل محترم من علية القوم . . فأرجوك أن تخرج الطقم الصينى المذهب .

وأشار الرجل برأسه علامة الموافقة .

وعاد الأستاذ يؤكد :

— الطقم الصينى المذهب .. سامع ؟! لا أريد أن تخجلنى أمام الرجل بالفناجين الفخار الصفراء.

وقام «الأستاذ» ليغسل يديه، ثم اتجه إلى حجرته ليضطجع .. ومرّ بالخادم وهو يزيل بقايا الطعام من فوق المائدة فقال له للمرة الرابعة :

— الطقم الصينى يا «عم على» .. لا تنس.

وأشار الرجل بالموافقة دون أن يصيبه أى ضيق من إلحاح سيده، والواقع أن هذا الإلحاح من جانب الأستاذ لم يكن فى غير موضعه .. فقد كانت مسألة «طقم الشاى» من المسائل التى ظلت معلقة بينهما لم يحسمها نقاش أو نزاع.

فـ «عم على» يتخذ من طقمى الشاى معياراً يزن به أقدار الناس. فتراه قد قسم الضيوف والصحاب إلى قسمين : قسم مرغوب فيه، وقسم غير مرغوب فيه .. أو كما يقول هو : الأشرار والأبرار، وهو يصر على ألا يشرب الأشرار إلا فى الفخار .. أما الطقم الصينى فهو يحتفظ به للذين يود أن يخصهم برضائه، ويشعرهم بإعزازه وإكرامه .. وهو يعتبر نفسه فى هذه المسألة .. مسألة الفخار والصينى دكتاتوراً مطلقا .. الذى يقرر أهل الصينى وأهل الفخار.

وكان من المحتمل ألا تزعج «الأستاذ» هذه المسألة،

وأن يقبل تحكم الرجل فيها كما قبل تحكمه فى غيرها، لولا أنه يحس أن «عم على» يخلط بين أقدار الناس، فيقدم الصينى لمن لا يستحقه، ويقدم الفخار لمن يستحقون الصينى. فلم يجد بداً من أن يحذر «عم على» فى كل مرة ويفهمه عن الطقم الذى يجب أن يقدم ورغم هذا التحذير والتفهيم.. كان «عم على» لا يفعل إلا ما فى رأسه.

واليوم سيزوره رجل من كبار الرجال ذوى الشأن والمكانة ليستشيره فى مشكلة ألمت به.. وليسأله العون والنصح باعتباره من كبار علماء النفس.. وهو يخشى جداً أن يخجله «عم على» كعادته، فيقدم «الشاى» للرجل فى الطقم الفخار.. فلم يجد بداً من تحذيره والإلحاح عليه.

ودقت الساعة الخامسة، ودق معها جرس الباب، وكان الأستاذ قد انتهى من ارتداء ملابسه، وسمع «عم على» يفتح الباب، ويدخل الضيف فى سكون إلى حجرة الاستقبال فوضع المنظار على عينيه، وكبس الطربوش على رأسه، وهرول لتحية الرجل، وصادف «عم على» خارجاً من الحجرة، فعاد يكرر عليه للمرة الأخيرة:

— الطقم الصينى يا «عم على».

وهزّ «عم على» رأسه موافقاً كعادته دون أن ينبس ببنت شفة.

وجلس « الأستاذ » يحيي ضيفه ، ويحيطه بما يليق بمكانته ومركزه من آيات الاحترام والإجلال . وجرت بين الاثنين أحاديث سطحية عابرة .. عن الجو .. وعن السياسة .. والغلاء .

وبعد فترة دق الباب ، ثم دلف « عم علي » إلى الحجرة متحركا ببطء وتؤدة حاملا صينية رصت عليها الفناجين وبراد الشاى وبقية الأدوات ، وكان الأستاذ موليًا ظهره لباب الحجرة فلم ير الرجل حتى لف حوله ووضع الصينية فوق المنضدة .

ونظر «الأستاذ» إلى الصينية ، وأحس بخيبة أمل شديدة ! إن الرجل الغبي اللعين قد ركب رأسه وضرب برجائه عرض الحائط .. فلقد أبصر على المنضدة الثلاثة فناجين الفخار ! . وعلام الفنجان الثالث ؟ .. ترى هل ينوى الأحمق أن يجلس فيشاركهما الشاى ؟ من يدرى ؟ قد يفعلها .. فقد تطور فى السنوات الأخيرة فأضحى لا يستبعد عليه أى شيء .

ورفع السيد بصره إلى خادمه الذى وقف فى صمت بجوار المنضدة .. والتقت الأبصار ، وكان كل منهما يستطيع أن يقرأ مافى رأس الآخر بسهولة .. ولكن فى هذه المرة لم يجد فى عيني خادمه مايقرأ .. فقد بدا عليه شيء من الشرود .. الشرود الذى يبديه وكأنه يرى أشياء غير مرئية ولا ملموسة .. ولشد

ما كان ذلك يزعج «الأستاذ» ، ويخيفه ، فأمر خادمه أن يغادر الحجرة لأنه سيصب الشاى بنفسه .

وأخذ الأستاذ يصب الشاى ، وبدأ صاحبه يقص قصته .

قال الرجل : إن مسألته من المسائل التى يصعب على العقل البشرى تصديقها ، فهو مصاب بشيء لا يحس به سواه ، وهو يخشى أن يقصه على الناس فيتهموه بالجنون ، ولذا فقد لجأ إليه لأنه يعتقد فيه سعة العقل وهو لا شك سيستطيع أن يفهمه جيداً .

كان الرجل يعرف فى صباه امرأة من بنات الهوى . . وحملت منه المرأة فحاول إجهاضها عبثاً . . وحان وقت ولادتها فنقلها إلى إحدى المستشفيات ، وكانت ولادتها عسيرة مضنية . . وأخيراً وضعت الجنين . . وماتت هى ، وأوصته بابنهما خيراً وهى تلفظ آخر أنفاسها .

ورشف الرجل من فنجانه الأصفر رشفة طويلة وعاد يقول :

— لتتصور ياسيدى موقفى وأنا فى السنة النهائية من الدراسة . . وأنا أعيش فى بيت والدى الرجل القاسى الصارم . . وقد أنجبت ابناً ، لا أم له . . ولا إنسان يحمل عنى عبئه . . لقد حملته إلى أحد الفنادق . . واستأجرت وإياه غرفة . . آويه فيها . . حتى أستطيع أن أدبر أمرى وأمره .

وكانت ليلة عاصفة شديدة البرد، والريح تعوى فى الخارج عواء ذئاب ضارية . وينفذ فحيحها إلى الحجرة من خلال النوافذ كأنه فحيح الأفاعى . . وأجهدت رأسى لكى أجد لى مخرجاً من مأزقى . وأخيراً مر بذهنى خاطر عجيب . . استطعت بواسطته أن أتخلص من حملى إلى الأبد .

لقد خطر لى أن هذه الريح العاوية خير من يحمل عنى عبئى . . فلو فتحت لها النافذة وسمحت لها بالدخول لحظة وأطلقت قرها على الطفل . . فإنها لاشك ستكون القاضية . . وسيموت الطفل دون أن يكون هناك أى مظهر من مظاهر الجريمة .

وبعد لحظات كانت الريح تزأر فى الحجرة . . والطفل يرتجف ويرتعد . . وفى الصباح قضى الأمر . . وذهبت إلى الدار بعد أن ألقيت عنى ما أثقل كاهلى ! !

وصمت الرجل برهة شرد فيها ذهنه وعاد يتمتم :

— لقد ظننت أننى تخلصت من العبء نهائياً . . فلقد ذهبت الأم . . وذهب الطفل ، وأصبحت حراً طليقاً من كل قيد . . ومرت بى الأيام وأنا أغترف من ملذات الحياة حتى شبعت

وارتويت . . ثم شعرت أخيراً بحنين إلى الاستقرار وإلى أن يكون لى زوجة وبيت وأولاد . وفعلا تزوجت . . ووضعت امرأتى أول طفل .

وفى ذات ليلة . . ليلة ليلاء سوداء . . أحسست بالنافذة تفتح على مصراعيها وبالريح تتدفق من النافذة وبعد بضعة أيام مات ابنى .

وقد تقول أن الحادث مجرد صدفة . . وقد كنت أستطيع أن أقنع نفسى بذلك . لو لم أرها بعينى رأسى تعدو منطلقة من الحجرة بعد أن فتحت النافذة .

من هى ؟ . . المرأة القديمة ، التى قتلت ابنها . لقد عدوت خلفها وهى تعدو إلى الباب بعد أن فعلت ما فعلت وحاولت

أن أهوى على رأسها بعصاى هذه .. وذهلت زوجتى وحاولت أن تمسك بى .. لأنها لم تستطع أن تبصرها كما أبصرتها .. وظنتنى أتخيل خيالات ..

ولقد عادت لى بعد ذلك . لتطاردنى فى كل مكان ، حتى بت أحس أنى على وشك الجنون .. إن لم أكن قد أصبحت بالفعل مجنوناً .

وصمت الرجل وبدأ الأستاذ يهدىء من روعه ويوهمه أن مابه عقدة نفسية ناتجة عما يحسه من تأنيب الضمير على الجرم الذى ارتكبه ... وأنه ليس هناك أية امرأة تطارده .. وأن النافذة قد فتحتها الريح .

وأخيراً خرج الرجل بعد أن هدأت نفسه بعض الشىء وأقبل « عم على » ليحمل صينية الشاى .. وتذكر الأستاذ مسألة الفناجين وكيف أخجله « عم على » مع الرجل بالفناجين الفخار . فضغط على أسنانه وصاح به ناهراً لأول مرة فى حياته :

— ألم أقل لك أن تقدم الطقم الصينى .. لقد كررت عليك الرجاء مائة مرة ... ماذا أصنع بك ؟

ونظر « عم على » إليه وقال بهدوء :

ــ الطقم الصينى ليس به سوى فنجانين ! .

ــ ومن قال لك أننا نريد أكثر من فنجانين ؟

وصمت « عم على » برهة وهز رأسه وقال وهو يحمل الصينية ويغادر الغرفة ببطء وثقل ، وفى عينيه النظرات الشاردة التى تظهره كأنه يرى أشياء خفية :

ــ لم أكن أظن أن المرأة التى تبعت الرجل ... ستنصرف دون أن تحتسى الشاى .

صديق مجنون

... ولم أستطع أن أقول غير ذلك .. أأقول مات من الذعر ؟! من الحديث التليفوني ؟! من كان المتحدث ؟ .. وماذا قال ؟ ! . ولِمَ ؟ !

كنا صحبة نسمر ذات ليلة . . وتشعب بنا الحديث ذو الشجون ، فإذا به يخوض بنا فى العالم المجهول ، عالم الأرواح ذو اللجج العميقة والمجاهل والمضال . وألقى كل منا بما يعرف . . وما لا يعرف . . وبدا حديثنا أقرب إلى الترهات والأباطيل . . والأقاويل والأضاليل . . ولم أجد فى كل ما قيل أكثر من خبطات عشواء فى غياهب شك ، وظلمات ترجيم .

وتتابع الحديث ، واحتدم الجدال . . كل يسوق الأدلة ويضرب الأمثال . . وكان بيننا زميل طبيب لزم الصمت ، فما فاه ببنت شفة . . واستمر ينصت ولا يتحدث حتى أفرغنا ما فى جعبتنا من هراء ولغو وهذيان . . ثم رأيته يهز رأسه ببطء كأن هناك ما يحيره ويشغل ذهنه مما لا يود قوله . . وقلت له متسائلا :

— ما بالك ؟

— لا شىء . . خير لنا أن نكف عن الحديث فى الموضوع . . فنحن أعجز من أن نستطيع فهم حقيقته ، أو إدراك كنهه . . وخير لنا أن نقنع بظواهره من خفاياه وألا نحاول كشف غياهبه.. فكلما ازددنا توغلا فيه ازداد علينا

حلكة وتعقيداً .. لندع العالم المجهول .. مجهول كما هو .. ولنق أنفسنا خطر علمه .. فلقد صادفتنى حادثة .. لها بهذا العالم صلة . حاولت أن أفحص فيها وأبحث وأجد فى التعليل والتفسير .. ولكنى لم أفز بطائل .. ونأيت بذهنى عنها خشية الجنون وقبلتها على علاتها .. وفزت من العلم بسلامة العقل .

وصمت الطبيب برهة استعاد فيها الحوادث إلى ذهنه .. ثم قال :

ـ لست أدرى .. لِمَ كنت أول من لجأ إليه خادمه عندما وجده ميتاً فى مقعده .. ولكن أغلب ظنى أن الخادم نفسه لم يخطر على باله أن سيده مات فعلا ، عند ما اقتحم عليه غرفته بعد أن وجده قد تأخر فى الاستيقاظ على غير عادته .. ففوجىء بأن يراه قد تمدد على مقعده الضخم بجوار آلة التليفون وهو بكامل ملابسه .. ولم تخطر على بال الرجل فكرة الموت .. بل ظن أن المسألة لا تعدو إغماء بسيطاً فأسرع فى استدعائى .

وبدت وفاة الرجل للمسئولين وفاة طبيعية .. لا دخان حولها ولا غبار عليها .. فقد مات الرجل بالسكتة القلبية ..

ولم يكن هنـاك أى احتمال لأن يقال شيء غير هـذا . . ومع ذلك فقد كنت أحس فى قرارة نفسى بمـا ينبئنى أن فى وفاة الرجل شيئاً خفياً . . لقد كنت أعلم أكثر من غيرى . . أن الرجل ذو قلب سليم قوى . . فقد كشفت عليه منـذ بضعة أيام ، ولم أجد به مايبعث على القلق . . ثم ما معنى تلك التعابير العجيبة التى ارتسمت على وجهه الميت ؟

كنت أعرف الرجل منذ سنين خلت . . فقد كنا جيراناً فى المعادى . . ولم تـكن داره لتبعد عن دارى إلا مسيرة دقائق معدودات . . وعرفته فى أول الأمر كرفيق قطار . . تشابهت مواعيدنا . . فتـكرر لقاؤنا فى القطار ذهاباً وعودة . حتى كنت لا يكاد يمر علىّ يوم دون أن أبصره . . ولم يكن هنـاك بد . . والأمر كذلك — خاصة وأن الرجل لم تـكن تبدو عليه سيماء شر . . ولا مخائل سوء — من أن تنشأ بيننـا صداقة عابرة لا يزيد مظهرها عن إيماء بالرأس ، وتبادل بضع كلمات عن الجو ، والسؤال عن « الصحة » .

كان الرجل أسمر الوجه حليقه . . على شيء من البـدانة والترهل وثقل الحركة . . وكان يبدو فى الحلقة الخامسة

من عمره أبرزمافيه مظاهر الطيبة التى تبدو فى قسماته ، والتى تعززها تلك المسبحة التى لا تفتأ حباتها تنزلق بين أصابعه .. وتلك الهمسات غير المسموعة التى تتمتم بها شفتاه .

وازدادت بيننا أواصر الصداقة .. فعلمت أنه رئيس قلم فى إحدى المصالح ، وأنه يملك فوق مرتبه دخلا ثابتاً من أرض لزوجته مما يجعلهما فى بسطة من العيش .. خاصة وأنهما لم ينجبا أبناء .. وبمر الأيام بدأت أتبادل مع الرجل الزيارات المنزلية فوجدته وزوجته مثلا لزوجين راضيين قانعين ، يجد كل منهما فى قناعته بصاحبه أقصى متعته فى الحياة .

وعندما أقول زوجان راضيان قانعان قد يبدو ذلك الوصف طبيعياً بالنسبة لأى زوجين .. لأن المفروض فى الزوجين قناعة كل منهما بصاحبه .. ولكنى من جانبى أرى

أن الوصف على شيء من الغرابة . . لأنى لا أعتقد أن القناعة شيء طبيعي من جانب الرجل — وليعذرنى الرجال على هذه الصراحة ، فكلنا فى الهوى سواء — لأن الرجل خلق بطبعه شديد التعطش إلى النساء . . لا تروى غلته امرأة واحدة . . ولا اثنتان . . ولا عشرة . . ولا مائة . . فهو دائم التطلع إلى كل حسناء يقع عليها بصره . . قد يختلف الرجال فى قدرتهم على كبت ذلك التشوق وإخفاء تلك اللهفة . . وقد يتفاوتون فى مدى تهافتهم أو السيطرة على نفوسهم . . ولكن ما من شك فى أنهم فى بطونهم رجل واحد يتمنى أن يرتمى فى أحضان أول حسناء تصادفه . . حتى ولو كانت له مائة زوجة .

وعلى ذلك فقد كنت أرى فى قناعة الرجل بزوجته . . وفى رغبته عن سواها وزهده فى غيرها . . حتى ولو بمجرد التطلع أو الحديث شيئاً يستدعى منى التقدير والإعجاب . . وكنت أدهش من ذلك الإمعان منه فى النأى عن كل ما يتصل بالنساء وبسيرتهن .

وعندما زادتنى الأيام معرفة بالرجل وبزوجته بدأت أسائل نفسى :

ترى أذلك الإخلاص منه والوفاء مبعثهما شعور صادق بالقناعة والرضا .. أم أن مبعثهما ليس سوى خشية المرأة والخوف منها ؟ . لقد كانت الإجابة عن ذلك أمراً عسيرا .. فالرجل ممثل جيد .. لا يستطيع الإنسان بسهولة أن يسبر غوره .. ولكنى كنت أميل إلى الاعتقاد الأخير — لا لأنى من أنصار المبدأ القائل بأنه لا يوجد فى الدنيا رجل قنوع بامرأته قناعة حقيقية غير مكره عليها — بل لأن المرأة فعلا كانت من نوع شديد السيطرة ، قوى الشكيمة .. تتحكم فى كل شىء ، وتتصرف فى كل تافهة .. وكان هو سميعاً مطيعا ، راضياً قانعاً .. أو هكذا كان يبدو .. فقد كان كما قلت ممثلا جيداً .

وفى ذات يوم أصيبت المرأة فجأة بنزيف فى الرئة .. وأخذ مرور الأيام ينهش من حياتها حتى تركها جسداً طريح الفراش هزيلا نحيلا .. وعندما ماتت لم يكن فى موتها أية مفاجأة .. فقد كانت نتيجة منتظرة محتومة .. ولا أظن الرجل إلا قد حزن عليها ، وإن كان قد حاول جهده أن يبدو متمالكا متماسكا وبأن يتذرع بالصبر والإيمان وبـ « إنا لله وإنا إليه راجعون » وبدا عليه هزال شديد فى الفترة التى أعقبت الوفاة .. وكان دائم الوجوم والإطراق .. وخيل إلىّ أنه يقاسى ألم الفرقة

والوحدة . . حتى وجدته بعد فترة من الوقت يسترد نفسه . . ويعود إلى سابق حالته . . لا نحول ولا ذبول . . ولا وجوم ولا إطراق .

ولم أجد فى أمر الرجل شيئاً من الغرابة . . لأنى أعلم أنه ما من نعمة منّ الله بهـا على عبيده خير من نعمة النسيان . . وأنه ما من حزن أصاب الإنسان إلاوكان الزمن كفيل بمحوه كل شىء فى الحيـاة إلى الزوال مصيره . . حتى الأحـزان ، والأشجان .

أقول إننى لم أدهش فى أن يعود الرجل إلى نفسه . . ولـكنى دهشت كثيراً عنـد ما وجدته قد عاد إلى أكثر من نفسه . . لقد لمحت به كثير تحول وتبدل . . فما عاد يعرض عن سير النساء أو يتجنب الحديث عنهن كما كان يفعل قبل وفاة زوجتـه . . وما عاد يخشى أن يبدى إعجابه بهـذه أو بتلك . . وذهب عنه قديم زهـده ، وسابق تعففه . . وبالطبع لست أقصد بقولى هذا أن الرجل قد تحول فصار زير نساء . . أو أنه قد بات صائد غوان أو مطارد ظباء . . فإنه ما زال كما هو بطيبته وحيـائه . . ولـكنى تبينت ذلك التحول من طريقة

حديثه . . فقد بدأ يكشف الحجاب عن نفسه ، ووضح لى أنه مخلوق مثلنا يستملح ويتمنى ويشتهى ، ولم أشك وقتئذ فى أننى كنت على حق عند ما ظننت أن مبعث زهده وعفته كان خشية من امرأته التى كانت شديدة السيطرة عليه .

وصادفت فى بضعة مرات امرأة من أصدقاء زوجته تزوره فى داره . . امرأة لا أظن هناك أصدق فى وصفها من « بنت جنت » . . ولم يكن من العسير أن أكتشف أن صاحبنا مفتون بها . . فقد كانت توجد فى نفسه حالة سرور ونشوة ، ولم يكن يتورع من أن يخلع عليها ألفاظ المديح والثناء .

وفى ذات يوم — ولم يمض على وفاة الزوجة إلا أشهر معدودات — بدا لى من حديث الرجل أن به رغبة فى زواج المرأة . . لولا أنه يخشى بعض أقاربه الذين سيعارضون فى ذلك . . ولست أدرى أى شيطان جعلنى أتمنى فى ذلك الوقت أن أرى زوجته فى قبرها حتى أخرج لسانى لها ولغيرها

من المخدوعات فى مسألة الوفاء الزوجى وفى قناعة الرجل وزهده .

ومرت الأيام ، وأنا أحس أن الفكرة قد اختمرت فى نفسه ، وأنه قد يقدم عليها فى أية لحظة رغم معارضة أقربائه حتى وجدته يقبل علىّ ذات مرة فى دارى وقد بدا عليه قلق ظاهر . . وجلس يتحدث إلىّ وهو يحاول أن يبدو طبيعياً إلى أن قال فجأة :

— اسمع . . وقع لى اليوم حادث غريب يحيرنى أشد الحيرة . . لقد غادرت مكتبى فى هذا الصباح لفترة قصيرة وعند ما عدت أنبأنى حاجب المكتب أن سيدة طلبتنى فى التليفون وطلبت منه بأن يذكرنى بأن أحضر الفستان من « التنتلرى » فقد مضت عليه مدة طويلة .. وأدهشنى قول الرجل دهشاً شديداً . . فإن زوجتى قبل وفاتها قد أرسلت أحد ثيابها لتنظيفه ، ومازال الثوب هناك حتى الآن .. ولا أظن أن هناك من يعرف أمره إلا أنا ، وهى ، وصاحب المحل .

مسألة غريبة ! ! ولست أنكر أن دهشى لم يكن أقل من دهشه . . ولكننى حاولت أن أجد تفسيراً لأخفف من قلقه فقلت له إن المتحدثة لابد قد أخطأت الرقم ، وأنها قد تكون

زوجة موظف آخر لها فستان تريد من زوجها إحضاره وأن المسألة قد حدث فيها التباس .

وبدا لى أن الرجل يحاول جهده أن يقنع نفسه بما قلت .

وفى اليوم التالى أقبل علىّ الرجل وهو أشد تجهماً وأكثر قلقاً . . وأنبأنى أن المحادثة تكررت . . وأنه لم يجد بداً من الذهاب لإحضار الثوب . . وعند ما عاد به إلى الدار أقبل عليه الخادم ، وقد بدا عليه الانزعاج وأنبأه أن سيدة تحدثت فى التليفون وقالت إنها « المرحومة » وطلبت منه عند ما يحضر سيده الفستان أن يعلقه فى الدولاب الأوسط .

ولولا ما كان يبدو على الرجل من ذعر شديد لانطلقت مقهقهاً فإنى لم أشك أن المسألة عبث عابث . . وأن ماجناً يحاول أن يهزل مع الرجل هزلا ثقيلا . . وأخذت أهدىء روعه وأفهمه أن الأمر لا يمكن أن يكون إلا مزحة بلهاء . .

وعلمت أن الرجل متعب الأعصاب . وأن تلك المزحة الخبيثة قد صادفت من نفسه مرتعاً خصباً للإزعاج . . فنصحته أن يأخذ أجازة وأن يخلد إلى الراحة التامة .

وصرفتنى عنه ظروف العمل ثم لقيته بعد ذلك بأسبوع . . فهالنى أمره . . إذ وجدته قد أصابه هزال شديد وبدا شاحب الوجه غائر العينين . . وسألته فى دهش عما أصابه . . فأجاب لا شىء . . وعدت ألح عليه فى السؤال قائلا :

– لا بد أن يكون هناك شيء . . . . أما زالت تقع تلك المحادثات التليفونية ؟

وتنهد الرجل تنهيدة طويلة كمن يرزح تحت عبء ثقيل ، ثم قال فى ذهول :

– فى كل مكان أذهب إليه ... أجد منها رسالة تليفونية تنتظرنى . . فى المقهى . . وفى النادى . . وفى المكتب . . وفى المنزل . . وأؤكد لك ياسيدى أن المحادثات لا يمكن أن تكون مزحة مازح . . فنى معظم الأحيان أجد فيها أشياء عن الماضى لا يعرفها إلا هى ، وأنا . . .

– قد تكون المسألة مجرد توارد خواطر .

– مع من؟ إنها تذكرنى أحياناً بأشياء أكون قد نسيتها تماماً

– ولكن هذه الأشياء لاشك موجودة فى عقلك الباطن

– ياسيدى ! ! لا تدعنى أتهمك بالسخف ! من تظن ذلك الذى يظل يطاردنى بين القاهرة والمعادى لينقب عما فى عقلى الباطن لكى ينقله إلى فى التليفون بعد ذلك ؟ . ثم هناك أمر آخر ، هل تصدق أننى ذهبت لزيارة بعض الأقارب فوجدتهم فى حالة ذعر مخيف وأخبرونى أنها قد طلبتنى قبل ذلك بلحظات وأن من ردت عليها استطاعت أن تميز صوتها تمام التمييز . إنها تعرف كل مكان أذهب إليه ، حتى ولو ذهبت إليه فجأة .

ولم أدر بم أجيب الرجل .. فقد كانت أعصابه محطمة ، ولم يكن هناك فائدة من الحديث معه . . وعند ما فحصته طبياً وجدته سليما معافى ليس به إلا إجهاد جسمانى ناتج عن الأرق .

وهدأت روعه بعض الشيء وحاولت أن أفحص المسألة معه فى هدوء . قلت له :

— هب أن ذلك الذى يطلبك حقاً زوجتك .. ماذا تظنها تريد منك ؟

قلت ذلك وأنا أتوقع منه أن يجيب بأنها تريده ألا يتزوج . ولكنه هز رأسه قائلا :

— لا شيء . . إنها لم تذكر ذلك الشيء الذى قد خطر ببالك . . . كل ما تطلبه أشياء بسيطة تافهة كالتى كانت تطلبها فى حياتها . . أو تذكرنى بأن أفعل كذا وكذا . . ولا شيء أكثر من ذلك . . ويخيل لى أنها بذلك تحاول أن تقحم نفسها فى حياتى مرة أخرى . . وأن تستعيد نفوذها علىّ .

— وماذا يخيفك من ذلك . . تدعها تفعل كما تشاء . . حتى تمل من تلقاء نفسها وتتركك .

— ياسيدى العزيز . . إن أكثر ما أخشاه أمر واحد . .

إن محادثاتها تقترب منى شيئاً فشيئاً . . أعنى أننى لا أكاد أذهب إلى مكان حتى يخبرونى أنها تحدثت منذ دقيقة أو دقيقتين . . ولست أدرى والله ماذا يمكن أن يحدث لى إذا مارفعت السماعة ذات مرة . . فسمعت صوتها . .

أجل لشد ما يخيفنى ذلك فما أظن أن هناك امرءاً قد خاطب الموتى قبـل ذلك . . إن ذلك الأمر يسبب لى ذعراً شديداً .

وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى أبصره فيها الرجل على قيد الحياة. فقد رأيته بعد ذلك عند ما استدعانى الخادم. فوجدته ممدداً على مقعد بجوار التليفون وقد تدلت السماعة بجواره . وارتسمت على وجهه علامات ذعر شديد . . وقال الخادم إنه سمع جرس التليفون يدق فى المساء . . ثم سكن الرنين فأدرك أن سيده لا بد أن يكون قد أجاب عليه .

وفى الصباح وجده على حاله تلك وقالوا إن الرجل قد مات بالسكتة . . ولم أستطع أن أقول غير ذلك . . أأقول مات من الذعر ؟! من الحديث التليفونى ؟! من كان المتحدث ؟ . . وماذا قال ؟! . ولِمَ ؟!

* * *

وصمت الطبيب وارتسمت على وجوهنا علامات دهش شديد .. ورأيتنى أفكر فى كل ما قال . . وأحاول أن أجد له تفسيراً . . إنى شخصياً لا أومن بالأرواح ولا بالعالم المجهول .. ولكنى أومن بالبشر ، وبعقل البشر ، ورداءة البشر . . لست أدرى لِمَ ذهب ذهنى . . إلى أقارب الرجل الذين كانوا يكرهون زواجه من المرأة التى كانت على وشك أن يتزوج بها ثانية . . ألا يمكن أن يكونوا هم الذين دبروا تلك المحادثات التليفونية لإخافة الرجل حتى حطموا أعصابه . . ألا يمكن أن تكون واحدة منهم هى صاحبة المحادثة التى تسببت فى قتله ؟ أم ترى أن الصوت كان حقاً من العالم المجهول ؟ . من يدرى ؟ !

هذا البيت

كم أود الانطلاق من هذه الدار.. ان روحي حبيسة فيها.. اني أود الانطلاق الي ما هو أكثر رحابة وسعة .

استقر بهم المقام أخيراً فى هذه الدار الرحبة الواسعة الكائنة بحلمية الزيتون . . ولم يكن صاحبنا ليصدق أنه يستطيع الحصول فى هذا الوقت الذى استبدت فيه أزمة المساكن وارتفع إيجارها على مثل هذا المسكن بمثل هذا الأجر . .

من يصدق هذا ؟ « فيلا » من بابها . . خمس حجرات متسعة وبدروم وحديقة مترامية الأطراف بخمسة جنيهات وبلا « خلو رجل » . لقد كانت بلا شك صفقة عجيبة . . أغلب الظن أن أحداً لا يعلم بخلو الدار ، وإلا لما استطاع الحصول عليها بمثل هذه السهولة . . إنها مسألة حظ لا أكثر ولا أقل .

ومضت الأيام القلائل الأولى ، والزوجة منهمكة فى تنظيف الدار وتنظيم الأثاث بمساعدة الخدم . . أما هو فقد جعل الحديقة من نصيبه ، فانهمك هو وابنه وابنته فى تشذيبها وتهذيبها وإصلاحها بعد طول إهمال . . .

وانصرم الأسبوع الأول وهم فى حركة دائبة حتى أعادوا إلى الدار رونقها وجمال مظهرها فأحسوا بالهدوء والسكينة والاستقرار .

ومرت بهم الأيام ، قريرين هانئين . وجلس الأربعة ذات

مســاء فى الشرفة الواسعة المطلة على الحديقة ، وقد اضطجع الأب على أحد المقاعد المريحة ومدّ ساقيه على حافة الشرفة ، وجلست الأم وبيديها إبرتين وقطعة من الصوف وبكرة من الخيط تنسج له صديرياً ، وبجوارهما ركع الإبن والابنة - فى الثانية عشرة والتاسعة من عمرهما - يلهوان بإحدى اللعب . .

وندت عن الأب تنهيدة ملؤها الارتياح ، وقال فى لهجة راضية :

- هذا مكان نموذجى للكتابة . . إن حجرة المكتب بذلك المنظر الذى تطل عليه . . والهدوء الذى يسودها . . لا تصلح إلا لأن تكون مهبط وحى . . . ولشد ما أخشى ألا ينسب الفضل بعد ذلك فيما أكتب لى . . بل للمكان الذى أكتب فيه . . إذ يبدو لى أن أى إنسان يحل به سينقلب نابغة عبقرياً .

ولم يكن صاحبنا بالكاتب المقل أو المرفه الذى لا يستطيع أن يكتب إلا فى أجواء معينة ، ولكنه مع ذلك كان يصاب فى بعض الأحيان بقحط ذهنى . . يجعله فى حالة ركود تام . . ولم يكن يخشى بذلك أن يموتوا جوعا . . فقد كان له دخل ثابت يقيهم شر العوز . . ومع ذلك فقد كان يكره أن يتوقف

عن الكتابة . . أولا : لأنه يجد فيها متعة . . وثانياً . . لأن المزيد من الكتابة يعنى المزيد من النقود . . وما من إنسان ـ كائن من كان ـ لا يريد مزيداً من نقود .

وضحكت امرأته وقالت :

ـ أجل . . إن المرء ليحس فيه هدوءاً عجيباً ! ! . بعد هذا الضجيج الذى قاسيناه سنيناً فى بيت « العباسية » . . ضجيج الترام وصخب العربات والأوتوبيسات ، وصياح الباعة ، إن مانحس به لا شك رد فعل لطول ماملأ آذاننا من ضجة دائمة لا تهدأ .

وصمتت لحظة ثم أردفت وهى تتنهد فى ارتياح عجيب : وما زالت أصابعها دائبة فى عمل التريكو :

ـ هذا البيت كان لى أمنية العمر . . كنت أتمنى أن أسكن فى « فيلا » ذات حديقة غناء . . لا يشاركنا فيها إنسان . . كنت أتوق إلى هذه السكينة وهذا الخلاء وتلك الشمس التى تسطع فى كل مكان من أنحاء الدار . . والهواء الطلق الذى يسرى فى أنحائها ، وإلى تلك الخضرة والنضرة التى تمتد على مدى البصر . . كل هذا كان منتهى أملى . .

ومدّ الأب يده فتناول سيجارة من علبة على منضدة بجوارها وأشعلها ، ثم أخذ منها نفساً طويلا وقال معلقاً :

ــ وأعجب ما فى الدار أنك لا تحسين بها وحشة أمثالها من الدور العتيقة الواسعة . . أو المنازل الخلوية ، فهذه الحجرات الرحبة والجدران الضخمة والأسقف العالية . . وهذا الفضاء من حولنا . . كان يجب أن يكون له وحشته . . ومع ذلك فما أحسست له وحشة قط .

ــ هذا نفس ما أحس به . . أمر عجيب ! ! . إنه دائماً (وَنس) ما شعرت بالوحدة فيه قط . . وما أحسست وأنا فى حجراته أن الحجرة خالية . . وأننى وحدى . . رغم أنه قد لا يكون بها سواى ، إن جدرانه السميكة لا تمنع الضوء . . فليس به تلك الأركان المعتمة التى تعوّدناها فى الدور القديمة ، إنى ما أحببت بيتاً كهذا ، وما أحسست بالاستقرار كما أحسست فيه . . إنه كأنما قد بنى من أجلنا . . حتى الأثاث يبدو فى الحجرات كأنه قد عمل خصيصاً له . . لقد منحنا الله به نعمة كبرى .

وران الصمت ، وسادت السكينة ، لا تقطعها إلا هبات من نسيم الصيف تعبث بأطراف الشجر ، أو صيحات تنبعث من الطفلين الراكعين المنهمكين فى اللعب بين آونة وأخرى .

وشردت الأم بذهنها . . واستعادت لنفسها قولها :

« ما أحسست وأنا فى حجراته أن الحجرة خالية » .

وكيف يحس إنسان بالوحدة فى هذه الدار . . ؟

إنها تذكر ذات مرة .. أو مرتين . . وقد وقفت أمام دولاب الفضية تلمع ما به من أوان . . أنها أحست أن زوجها أو أحد الأطفال يجلس على المنضدة . . واستمرت منهمكة فيما تقوم به . . وهى لاتشك أن هناك إنساناً معها فى الحجرة حتى التفتت فجأة . . . فأدهشها ألا تجد هناك أحد .

ومرة أخرى وقد هبطت إلى الحديقة . . ثم عادت إلى الدار فوجدت زوجها يقف بالباب وقد حملق فيها دهشاً . . وسألها :

— متى هبطت إلى الحديقة ؟ لقد خيل إلىّ أنك تجلسين فى الصالة . . !

وهكذا . . دائماً . . لا يكاد الإنسان يشعر أنه وحده . . بل يحس دائماً أن هناك . . من يجلس هناك .

وتنبهت السيدة من شرودها على صوت الخادمة تقول :

— العشاء جاهز .

وجلس الأربعة على المائدة ، وبدأ الابن والابنة عراكهما الطبيعى . . على من يجلس على هذا الكرسى ، أو ذاك . . أو على من يأكل هذه القطعة ، أو تلك .

وصاحت بهما الأم بإنذارها التقليدى الذى لم يكن لها بد عنه :

— هس . . وبعدين . . ؟

وجرى الحديث خلال العشاء بين الأربعة ناعماً لطيفاً لا يخلو من الضحك والنهر والزجر والشكوى والمطالب ، حديث نموذجى لعائلة قريرة .

وصاح عمر — الابن — مبلغاً إحدى شكاواه لأبيه :

— « بابا » . . « كوثر » كسرت سن القلم الذى أعطيته لى .

واندفعت كوثر — الابنة — مدافعة عن نفسها :

— أبداً « يا بابا » هو الذى كسره .

— كذّابه .

وقال الأب مهدئاً :

— لا بأس سأحضر لك بدله .

ومضت فترة صمت قصيرة .

بدا « عمر » كأنما قد سرح بذهنه فى مسألة عويصة ، ثم سأل فجأة :

— بابا . .

— نعم . . ؟

ـ أليس أسوأ من الوحدة .. ألا تستطيع الوحدة .. عند ما تريد الوحدة .. ؟

ـ لا أفهم ما تعنى .. ؟

ـ ألم تقل « ماما » أن البيت « وَنس » وأننا لا نحس بالوحدة أبداً .. ؟!

ـ أجل ..

ـ هذا شيء يضايق .. فأحياناً يريد الإنسان أن يكون وحده .. ولكن فى هذا البيت لا نستطيع .. لابد أن يكون هناك أحد معنا ..

ـ لم تقصد « ماما » أن هناك أحداً معنا فعلا . بل هو مجرد شعور « بالونس » .. مجرد إحساس بالراحة لأننا لسنا وحيدين.

ـ لكنى أحس بأن هناك أحداً معنا فعلا .

ـ ماذا تعنى أيها « الحمار الصغير » .. ؟ هذا وهم .

ـ ليس وهماً .. لقد وضعت بالأمس علبة دودة القز على الدولاب فوجدتها فى الصباح ملقاة من النافذة .. ووجدت العلبة فارغة فى الحديقة ولم أجد الدود .. وأول أمس وجدت كاوتش الدراجة ممزقاً .. ووجدت زجاجة الحبر قد سكبت على كراسة الرسم .

ونظر الأب إلى « كوثر » بعين الاتهام . . ولكنها قالت بصوت فيه رنة بكاء :

— والله يا « بابا » مانا . .

وقال « عمر » مؤكداً :

— ليست هى . . إنى متأكد .

وتدخلت الأم :

— قد يكون أحد من الخدم . . لِمَ لم تخبرنى حتى أعرف من منهم فعل ذلك ؟

— أنا متأكد أن أحداً منهم لم يفعل . . إن الذى فعل . . هو ذلك الذى لا يتركنا منفردين . . إنه ذلك الذى يسبب لنا « وَنسا » ، والذى نحس به أنه دائماً هناك . . إنها هى لا شك فيها . . فإنى أحس أنها تكرهنى .

وصاح به الأب ضاحكا فى سخرية :

— من « هى » ، هذه التى تتحدث عنها ؟ ثم ماذا يجعلك تظن أنها « هى » ، وليس هو . . ؟ هل تظن أن بالدار عفريتا . . أيها الأبله ؟ هذه أوهام عجائز . . ! ليس هناك شىء اسمه عفاريت . . هل أنبأك أحد من الخدم أن الدار مسكونة ؟

وأجابت كوثر :

ــ لقد سمعنا بائع اللبن ينبىء « أم على » أن البيت به عفريتة .

ــ الحمار ابن الحمار . . ! لا تصدقا كلمة واحدة مما قال . . هذه كلها خرافات .

وذهب الأطفال للنوم ، ولم ينس الأب أن ينادى « أم على » ويزجرها بشدة ، وينهاها عن أن تخيف الأطفال مرة ثانية بهذه الخزعبلات التي يسمونها عفاريت . . وأجابت الخادمة :

ــ وانا مالى . . دا بتاع اللبن .

وفى اليوم التالى روعت الأم وهى فى المطبخ بصرخة استغاثة ، وهرولت الأم فإذا بابنها معلق فى فروع إحدى الأشجار ، وإذا بالسلم الخشبى ملقى على الأرض .

ورفعت له السلم ، وهبط الصبى وجلا خائفاً ، وأمسكت الأم بأذنه تعركها فى غيظ قائلة وهى تلهث من فرط الخوف :

ــ هذه المرة كان عنقك يوشك أن يدق . . ألم أقل لك مائة مرة . . كف عن هذه الشقاوة والشعبطة على الأشجار !

وجرت دمعتان على خد الطفل محدثتين مجريين فى وجهه المترب وقال وهو ينشج :

ـ لقد قلت لك أنها تكرهني ، إنها هي لاشك التي دفعت السلم من أسفل قدمي . . !

وأحست الأم برجفة تسري في جسدها ، وسألت في ذعر :

ـ من هي التي تكرهك ؟ لا بد أن السلم قد انزلق من تلقاء نفسه .

ـ أبداً . . جربي . . لقد كان مثبتاً في الأرض جيداً . . إنها هي . . دائماً تلاحقني بهذا العبث .

وعندما سمع الأب بما حدث هذه المرة كان أقل سخرية . . ونظرت إليه الأم في دهشة ، وهو يتلقى النبأ في صمت وإطراق .

وأخيراً رفع رأسه قائلا :

ـ لا شك أن هذا بله منا . . إننا سعداء جداً . . وإن البيت نموذجي . . فكيف نحاول أن نفسده بهذه الأوهام . .

ما رأيك ؟ هل نترك البيت ؟ هل تعتقدين حقاً أنه مسكون؟ وأن به عفريتة تكره الولد ؟

ــ لا أستطيع أن أصدق مثل هذا القول . . وإن كان ذلك لا يمنع من أنه يسبب لنا قلقاً ذهنياً . . يجعل راحتنا وهدوءنا موضع الشك . . من ناحيتك أنت ، أريدأن أسألك هل كتبت كما تود ؟ هل أعانك على الكتابة ؟ هذه نقطة هامة يجب ألا نغفلها إذا كنا ننوى التفكير فى المسألة جدياً .

ــ حتى الآن . . لا . . لأنى لم أنو الكتابة فعلا . . ولم أجرب بعد . . ولكنى سأحاول اليوم الكتابة .

وفى هذا اليوم أغلق الأب على نفسه حجرة المكتب . . ولم يغادرها إلا فى منتصف الليل . وعند ما فتحت الأم عينيها لتبصره يأوى إلى فراشه . . بدا لها متعباً مكدوداً . . فلم تشك فى أنه استطاع أن يقضى وقتاً مفيداً ، وأنه لابد قد أنتج شيئاً .

وقضى اليوم الثانى بأكمله فى مكتبه . . لم يغادره إلا لتناول الطعام . وكان يبدو عليه الإرهاق ، وبدا متثاقلا خابى العينين ولم يكن منظره يبعث كثيراً على الاطمئنان والسعادة . . كان شبه محموم .

وفى اليوم الثالث لم يغادر المكتب حتى للطعام . . ولم يتناول سوى فنجان من القهوة ، وفى المساء ترك الحجرة وسار

إلى امرأته محطماً مهدماً كأن على كتفيه ما أنقض ظهره . ومدّ يده إليها فى سكون بورقة مكتوبة ، وقال فى صوت ضعيف خافت :

ــ هذا كل ما استطعت كتابته . . الحمد لله . . لقد انزاح العبء .

وبعد لحظات كان يغط فى نومه .

وفحصت المرأة الورقة فى دهشة . كانت مكتوبة بخط يده وكانت الكتابة متناثرة على الورقة يميناً ويسارا ، وكان الخط رديئاً كأنما كتبه بيده اليسرى أو كأنه كان يكتبه وهو يرتجف محموما .

وبدأت المرأة فى القراءة :

« هذا البيت لى . . هذا البيت لى . . لى وحدى . . لقد كان دائماً لى . . لو استطاع أبى لوهبه لى . . ولما ساء أخى هذا . . فما كان البيت يهمه كثيراً ، فقد قضى حياته بعيداً عنه . . إنى لم أكره أخى قط ، رغم أنه ورثه دونى ، فقد سمح لى بالبقاء فيه ، ولقد أسفت على موته . . ولم أحاول أن أكره امرأته

كذلك . . إذ كانت امرأة تافهة لا تستحق الكره . . وكانت تنوى أن تغادر الدار بعد موته ، ولكنها بقيت من أجل ابنها الذى آلت إليه الدار بعد موت أخى . . لقد كنت أكرهه . . كان طفلا مقلقاً . . مزعجاً ، وكنت أتمنى أن أهدأ وحدى فى الدار وأنعم بسكينتها . . وأخذت أنتظر وأنتظر حتى آلت إلىّ أخيراً .. بعد أن سقط الصبى من السلم ودق عنقه . . وبقيت فى الدار وحدى . . كما كنت أتمنى دائماً . . ومع ذلك فما أحسست بأية متعة . . إنى قلقة حائرة . . إنى ضالة شاردة . . إنى لم أقصد قتله . . لقد دفعت السلم من أسفله ولكنى لم أقصد قتله . . لقد أخذ الندم يحرقنى بعد ذلك حتى أقدمت على الانتحار . . ولكنى مع ذلك لم أحس راحة ولا استقراراً . . كم أود الانطلاق من الدار . . إن روحى حبيسة فيها . . أود الانطلاق إلى ما هو أكثر منها رحابة وسعة . . رب خلص روحى من هذا الأسر . هذا السجن الذى طالما تمنيت البقاء فيه . . إنى أحس الآن بشىء من الراحة بعد أن اعترفت بجرمى . . وبعد أن لفظت تلك الجمرات التى تحرق نفسى . . الرحمة يارب » .

وأحست الأم بيدها تمزق الورقة إرباً . . وهبت نسمة

ذرتها فى الهواء . .

وعند ما استيقظ الزوج بدا كأنه قد أبل من مرض طويل وداء عضال .. والتصقت به الأم وهى ترتجف وسألته فى صوت خافت :

— هل تغادر الدار ؟

— لا داعى . . لقد انطلقت هى . .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد يحس أحد من أهل الدار بأن هناك دائماً من يجلس هناك .

خذني معك

فالتفت اليها مشدوهاً . ووضعت العلبة على المنضدة . . واقتربت من الفتاة وهمست بها « ما بك ؟ » فأجابتنى «أ نقذ ني ٠ خذ ني معك» !

دعانى صديق فنان ذات يوم لزيارة إحدى الدور القديمة فى حى « طولون » لنشاهد بعض آيات الفن القديم .

واتفقنا على أن أمرّ بداره فى الساعة الرابعة بعد الظهر . . وتناولت الغداء فى ذلك اليوم ثم استلقيت فى غفوة قصيرة استيقظت على إثرها فإذا بالساعة قد بلغت الرابعة .

وارتديت ملابسى على عجل ، وأسرعت إلى دار صاحبى . . ولكننى أنبئت أنه انتظرنى طويلا فلما طال تأخرى اضطر للخروج . . فلم أشك فى أنه قد سبقنى إلى الدار التى نقصدها فأخذت طريقى إليها .

ووصلت إلى الدار . . ووقفت على درجها الحجرى المتسع . . أتأمل جدرانها الضخمة الشاهقة المبنية على الطراز العربى القديم . . وقد علت الأتربة حجارتها وكساها القدم لوناً داكناً موحشاً ، فبدت كأنها إحدى القلاع الحصينة .

وصعدت الدرجات المؤدية إلى الباب ووقفت برهة متردداً وقد تملكتنى رهبة وخشية ، ثم مددت يدى فطرقت الباب الخشبى الضخم بالمقبض الحديدى المثبت فيه . . ووصل إلى أذنى صدى الطرقات ثم ساد بعد ذلك سكون عميق . . جعلنى أجزم أنه ما من أحد بالدار . . وأن صاحبى لا شك لم يصل بعد ،

وهممت بأن أعود أدراجي عند ما وصل إلى أذني من الداخل صوت أقدام تقترب ، وفتح الباب . . وبدا لى من خلاله عبد أسود . . قد وضع على رأسه عمامة ضخمة بيضاء ، وارتدى سروالا واسعاً وسترة مطرزة بالقصب . . وبدا لى كخدم القصور فى العصور الغابرة .

ونظر إلىّ العبد نظرة فاحصة ثم وجدته ينحنى فى احترام بالغ ويطلب منى التفضل . .

دلفت إلى الداخل فإذا بى فى صالة رحبة متسعة الأرجاء عالية السقف قد شاعت فيها الظلمة ، لا يكاد يصل إليها الضوء إلا من خلال النوافذ العالية ذات الزجاج الملون .

واستطعت أن ألمح على الضوء الباهت النقوش العجيبة والزخارف الرائعة التى نقشت على السقف والجدران . وعبرنا الصالة التى لم يبد لى فيها شىء من الأثاث إلى ممر ضيق طويل حيث وجدت عبداً آخر شديد الشبه بالخادم الأول وقد انحنى لى عند ما مررت به حتى كاد رأسه يلامس ركبتيه .

وتملكنى دهش شديد . . فما كنت أتوقع أن أرى فى الدار آثاراً حية . . كهؤلاء الخدم الذين يبدون لى كأنهم جزء من الدار ، بل كنت أتوقع أن أرى أحد موظفى الآثار يتولى إرشادنا والشرح لنا .

وأدهشنى أكثر من ذلك ألا أجد فى الدار أى أثاث أو أى مظهر من مظاهر الحياة يستدعى وجود هؤلاء الخدم « الأرستقراطيين »، بل كانت الدار خاوية ، حتى بدا لى الخدم كأنهم بعض العمد أو بعض التماثيل .

وانتهيت من هذا الدهليز إلى حجرة أخرى . . وجدت فيها أول مظهر من مظاهر الحياة .

وتلفت حولى فى شىء من التردد والخشية . . فوجدت الحجرة قد رص بها أحد تلك الأطقم المذهبة الدقيقة الصنع . . وقد غطيت أرضها بسجاجيد عجمية فاخرة تغوص القدم فيها . وعلقت على النوافذ والأبواب ستائر فخمة زرقاء .

ووقفت فى منتصف الغرفة حائراً لا أدرى ماذا أفعل ، فلقد تركنى الخادم الأسود الذى كان يتولى قيادتى .

وبعد فترة أحسست بوقع أقدام تقترب . . وفوجئت بصوت نسائى يهتف من ورائى :

— أهلا . . وسهلا .

وتلفت فى دهشة .. فوقع بصرى على امرأة فى منتصف العمر، وفتاة لا تتجاوز العشرين .

وتملكنى ذهول شديد .. فما كنت أتوقع قط أن أرى فى الدار نساء .. وبدأ الأمر يختلط علىّ .. فلم أشك فى أننى قد أخطأت الدار .

وهممت بأن أقول شيئاً للسيدة أوضح به ما يحتمل أن يكون قد حدث من خطأ ، ولكنى وجدتها تقترب منى فتشد على يدى مرحبة ، وتقول باسمة :

— لم أشك فى أنى سأعرفك لأول وهلة .. فإن بك شبهاً شديداً من أبيك .

ولقد كان بى حقاً شديد شبه بوالدى .. ولكن كيف عرفتنى السيدة وكيف عرفت والدى .. لقد أوشكت أن أجن من فرط الدهش .

وجلست السيدة والفتاة واتخذت مجلسى بجوارهما وأخذت أخصهما بنظرات سريعة فوجدت السيدة نصفاً فى العمر وفى الشكل وفى الحجم ، ولكن آثار الارستقراطية تبدو عليها واضحة فى كل حركة لها ولفتة ، أما الفتاة فقد استرعت منى التفاتاً أكثر ، إذ كانت جميلة حقاً .. وإن كان جمالها من نوع حزين صامت ، ففى جسدها نحول ، وفى وجهها شحوب ، وقد تهدل شعرها الحالك على كتفيها ، وبدت عيناها تشعان بسحر عجيب .

ولم تكد تمضى لحظة قصيرة تبادلنا خلالهـا بضع كلمات ترحيب حتى أقبل خادم يدعونا للشاى ، ووجدت السيـدة تنهض وتتقدمنا إلى حيث أعد الشاى .

ودلفنا من حجرة إلى أخرى حتى وصلنا فى النهاية إلى شرفة فسيحة من النوع القديم المسمى « بالمشربية » ، تتكون من خشب دقيق الصنع كأنه الدنتيلا ، وبالشرفة أريكة متسعة قد فرشت بالحشايا والوسائد المغطاة بالأطلس ، وفى وسطها منضدة مستديرة من المرمر ثابتة القوائم قد وضع عليها غطاء رقيق مشغول « بالبرودريه » ، وصفت عليها أدوات الشاى من أطباق مذهبة وأكواب فضية منقوشة ، وفناجين رسمت عليها رسوم دقيقة .

وجلسنا حول المنضدة وبدأ الخدم يحضرون الشاى فى إبريق فضى جميل ثم بدأوا يحضرون الفطائر والأطباق الملأى بأنواع الفاكهة الفاخرة .

وخيل إلىّ أن المسألة إنما هى أضغاث أحلام . . فقد ذكرنى كل هذا بما سبق أن قرأته فى ألف ليلة وليلة . . وقلت لنفسى ماذا يضيرك أن يكون حلماً أو غير حلم . . أقبل على المتع

التى أمامك واذكر قول الخيام « ويلتنا إن ضاع يومى من يدى »

وبدأت السيدة الحديث ففهمت منها أن بين أسرتينا وداً قديماً . . وأننا كنا نوشك أن نكون أنسباء ، فقد كان جدى على وشك الزواج من أمها . . لولا أن حدث سوء تفاهم بين أبويهما أدى إلى نزاع شديد .

وفهمت كذلك أن الفتاة ليست ابنتها ، كما كنت أعتقد ، بل ابنة أخيها وهى تتكفل بها بعد أن مات أبوها وأمها .

وانتهينا من تناول الشاى عند ماحضر أحد الخدم فانحنى أمام السيدة ثم اقترب منها وهمس فى أذنها بضع كلمات فوجدتها تنهض مستأذنة قائلة إنها ستعود بعد بضع دقائق .

وانصرفت السيدة . . ووجدت نفسى قد خلوت إلى الفتاة الحزينة الشاحبة التى تبدو فى رقتها كأنها طيف . . وأحسست بدافع قوى يدفعنى إلى الحنو عليها وإلى أخذها بين ذراعى وإسناد رأسها على صدرى.. ولكن الحياء كان يمنعنى . . وبدأ الارتباك يتملكنى . . وأخرجت من جيبى علبة سجائرى محاولا التشاغل بالتدخين .

ولم أكد أفتح العلبة حتى سمعت الفتاة تهتف باسمى هامسة فى لهجة ملؤها المرارة والحزن ، فالتفت إليها مشدوهاً . .

ووضعت العلبة على المنضدة . . واقتربت من الفتاة وهمست بها « مابك ؟ » فأجابتني « أنقذني . . خذني معك » ! .

ومددت يدى فضغطت على يدها . . ووجدتها قد نهضت وسارت بي خارج الشرفة هابطين بضع الدرجات المؤدية إلى الحديقة . .

ونفذ إلى أنفي عبق الزهور فملأني نشوة وزاد مشاعرى إرهافاً ، وجلست والفتاة على مقعد تحت إحدى الخمائل .

وتحدثت الفتاة فأنبأتني أن عمتها سترغمها على الزواج من عشيق لها — للعمة — تخشى أن يهجرها فهي تود أن تربطه بالفتاة الصغيرة حتى تضمن بقاءه إلى جوارها . . وأنها تلقى من عمتها عذاباً أليماً .

وأحسست والفتاة تبثني شكواها . . كأن هناك مغناطيساً يشدني إليها ، وبدا لى كأنني لم ألقها منذ لحظات فقط . . بل كأننا أحبا العمر . . ووجدتني أمسك بيدها فأضعها على شفتى ثم احتويت جسدها الرقيق بين ذراعى . . وضممتها إلىّ فى رفق وأسندت رأسها على صدرى ، ودفنت وجهى فى شعرها . ومضت لحظة والفتاة هادئة فى صدرى . . ثم رفعت إلىّ عينيها العجيبتين وقد كستهما عبرات تترقرق . . ووجدت شفتىّ

تقتربان من شفتيها فتضغطان عليهما . . ثم أغمض كلانا عينيه ورحنا فى نشوة .

وفجأة سمعت صوت العمة ينادى الفتاة ووجدتها تقف منا على قيد خطوات .

وفزعت الفتاة . . ورأيتها تنظر إلى المرأة نظرة متوسلة . . كأنها تسألها شيئاً ، ولكن السيدة هزت رأسها فى جمود وقسوة وأجابت فى اقتضاب :

— إذهبى . .

وسارت السيدة ، وسرنا وراءها حتى وصلنا إلى الشرفة فسألتنى أن اتبعها لتريني بقية الحجرات .

وعدنا أخيراً إلى الشرفة فلم أجد الفتاة ، بل أنبأنى أحد الخدم أنها تعتذر إلىّ لإصابتها بوعكة مفاجئة ، وأنها كلفته أن يحمل إلىّ سلامها .

وأحسست بلوعة شديدة ، وتمنيت لو أدفع نصف عمرى لأرى الفتاة الحزينة الجريحة القلب . . ولكن السيدة مدت إلىّ يدها مودعة سائلة إياى أن أزورهما دائماً .

* * *

وخرجت من الدار . . وسرت فى الطرقات . . وأنا أجد نفسى فى تمام اليقظة فلا حلم ولا وهم . . وكان أول ما فعلته هو أن ذهبت إلى بيت صاحبى فقصصت عليه كل ما حدث .

وقهقه صاحبي عالياً وأنبأني أن البيت كانت تسكنه حقاً العائلة التى ذكرت اسمها ، ولكن ذلك كان منذ سبعين عاما ، ثم أكد لى أن كل مارأيت إنما كان وهماً أو حلماً .

وفى اليوم التالى ذهبت وإياه إلى الدار ، ووجدنا أحد موظفى الآثار فى انتظارنا ودخلنا الدار بعد أن فتح الباب بمفتاح فى جيبه . . وأحدث الباب صريراً وكأنه لم يفتح منذ شهور أو أعوام .

وسرت فى الدار فوجدت بها شبهاً بالدار التى زرتها بالأمس ولكن الأتربة كانت تعلو الأرض والجدران ولم يكن هناك أى أثر للحياة ، لا خدم ، ولا سكان ، ولا حجرة استقبال ولا شرفة.

ونظر إلىّ صاحبي ضاحكا فى سخرية . . وهززت رأسى فى دهش شديد وأقنعت نفسى أن كل ما رأيت إنما كان أوهاما ، وانتهينا من التجوّل فى الدار . . وهممنا بالخروج . . عند ما سألت الدليل عن حديقة الدار . . فأنبأنا أنها حديقة مهملة ليس بها مايستحق الرؤية . . ثم دلف بنا فى عدة ممرات ليقودنا إليها . . وفجأة وجدت نفسى فى شرفة الأمس ! .

أجل ! . لقد كانت هى نفس الشرفة . . وقد بدا منها منظر الحديقة والخميلة والمقعد الذى جلسنا عليه . . وبدت فيها الأريكة ولكنها كانت عارية من الحواشى والوسائد ، وأشرت لصاحبي إلى آثار الأقدام المزدوجة التى تبدو بالحديقة . . وقلت

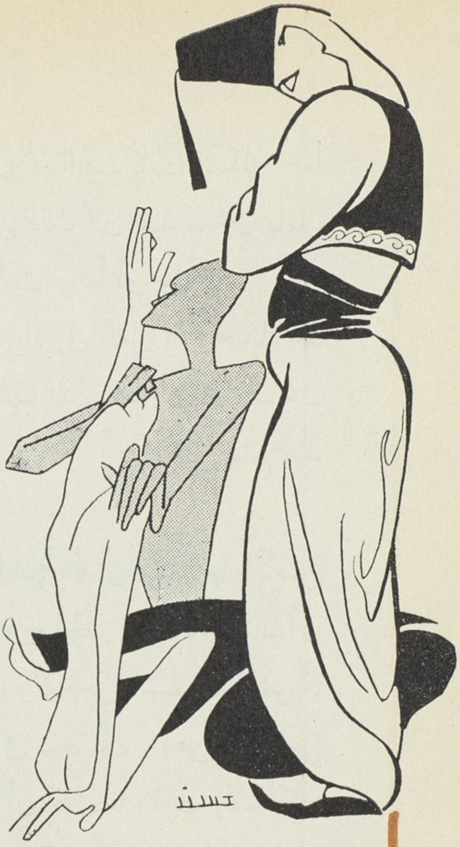

له : « مارأيك » .. « فأجابنى : « هذه حتما هى آثار الجناينى الذى يروى الحديقة » .

وأحسست بشىء من الخذلان .. وتلفت فى الشرفة فإذا بالمنضـــدة المستديرة المصنوعة من المرمر قد توسطتها خالية من كل شىء . لا مفرش .. ولا أدوات للشاى ولكن شيئاً واحداً هو الذى كان عليها وهو علبة السجائر ، علبتى أنا التى نقش عليها اسمى .. والتى أخرجتها بالأمس ثم تركتها على المنضدة .

وتناول صاحبى العلبة فى دهش شديد .. ولم ينبس ببنت شفة . ماذا حدث ؟ وكيف ؟ من يعلم ! !

ومرّ الحادث دون أن أجد له تفسيراً أو تعليلا .. قد يكون وهماً أو حلماً ، ولكن شيئاً واحداً هو الذى يجعلنى أكاد أوقن بأنه حقيقة .. وهو تلك الصور التى أرانى إياها الدليل لأهل الدار .. والتى وجدت واحدة منها صورة طبق الأصل للفتاة الشاحبة الحزينة .. التى احتويتها بين ذراعى فى الخميلة .

مات قتيلاً

لقد رأيت طفلة ، أو شبح طفلة
بيضاء باهتة ، تنحني على الفتى الراقد
باسمة وتمد يدها فتأخذ منه القرط .

بدأت دباباتنا سيرها فى عجلة تجاه الشمال ، فقد أنبأتنا الرئاسة أن العدو احتل ببعض عرباته موقعاً يشرف على الطريق وأن علينا إجلاءه بكتيبتنا حتى نطهر الطريق ونعيد المواصلات بيننا وبين القوة الموجودة شمالا .

كان الوقت قبيل الفجر ، ولم نؤخذ بالأمر على غرّة ، فقد قضينا الليل فى يقظة دائمة ، إذ كانت المعركة دائرة على أشدها ، وكان الدوى يسمع فى كل مكان ، واللهب يبرق هنا وهناك مبدداً حلكة الليل .

كان العدو قد بدأ هجومه الغادر . . واستعر أوار المعركة فى شتى المواقع . . وأخذت مشاتنا ومدفعيتنا تصليانه نيرانهما فترداه على أعقابه ملوماً محسوراً . . مخلفاً وراءه بساطاً ممتداً من جثث القتلى ، تاركا الأرض وقد بدت مكدسة بالأجساد كأنها ورقة الذباب .

وقضينا الليل نرقب وننتظر . . معدين عرباتنا ودباباتنا للانقضاض فى أية لحظة . . حتى وصلنا الأمر قبيل الفجر بالانطلاق لطرد العدو . . فانطلقنا .

وطلبت من اليوزباشى «محسن» قائد ثانى الكتيبة أن يأمر السرية الأولى بأن تتخذ مكانها فى المقدمة لكى تستكشف

مواقع العدو وتعجم عوده وتستطلع قوته ، على أن يكون قائدها على اتصال دائم بنا لكى ينبئنا أولا بأول بكل ما يعرف .

وبدا عليه التردد ، ثم تساءل قائلا :

— إن السرية الأولى يقودها « قدرى » وهو كما تعلم مريض ، ويتولى قيادتها بدله الشاويش « قرشى » .. شاويش السرية .. فهل ندعه يقوم وحده بالاستكشاف ؟ .

وفكرت برهة ثم أجبته :

— دع السرية الثانية تعمل فى المقدمة ، واجعل الأولى فى الاحتياطى .

وهمّ بالانصراف لتنفيذ الأمر ، ولكنه توقف كأنما قد خطر له خاطر جديد وقال متسائلا :

— ولكن لِمَ لا أتقدم أنا مع السرية الأولى للقيام بالاستكشاف ؟ . . هل لديك ما يمنع ؟

— أبداً . . إذهب إذا شئت .

وبعد لحظة كان قد اتخذ مكانه فى إحدى دبابات السرية الأولى متولياً قيادتها ، متقدماً بها على رأس الكتيبة لاستطلاع قوة العدو .

ووقفت فى برج دبابتى أرقبه يتباعد بسريته . . وبدت الدبابات على خط الأفق سوداء قاتمة وقد علا حولها الغبار

وأخذ ضجيجها يخف رويداً رويداً .. حتى لم نعد نبصر منها إلا أشباحاً باهتة ، ولا يصل إلى آذاننا من صخبها وضجتها إلا ما يشبه الهمهمة والهمس .

وتحركت رياسة الكتيبة وبقية السرايا .. ولاحت لنا الشمس تتسلل من وراء الأفق خلف الربى والآكام .. حمراء الضوء .. أرجوانية الشعاع .. كأن بها جرحاً يدمى .. وكأن أشعتها القانية دماء تراق على رمال الصحراء .

إيه ياشمس ! .. لقد رأيت شروقك فيما مضى .. فكنت أبصر فى حمرته لون الورود ولون الخدود .. لشد ما تنكرت وتغيرت واستبدلت بشعاع الورد شعاع الدماء .

أم ترى التغير قد أصاب العين التى تراك .. فلم تعد تبصر منك إلا صورة لما حولها من دماء ولهيب ؟ .

وتحركت رياسة الكتيبة وبقية السرايا .. وثارت من حولنا الضجة وعلا الغبار وانتشرت بضع دبابات ذات اليمين وذات اليسار لتحمى القوة فى أثناء تقدمها .. وأخذنا نمعن فى السير .. وبين لحظة وأخرى تحمل إلينا رسالة من سرية المقدمة بأن العدو لم يبد بعد .. حتى وصلتنا الإشارة الإيجابية الأولى تحمل فى طياتها « أن العدو قد ظهر ببضع عربات

عن يميننا » ، ثم رسالة أخرى « بضع عربات عن يسارنا » ورسالة ثالثة تتساءل « هل نشتبك ؟ » .

وتناولت سماعة اللاسلكى ، وطلبت « محسن » على الجهاز واستفهمت منه بشيء من التفصيل ، ثم أمرته بالاشتباك .

ووقفنا منتشرين فى أماكننا واتخذت الدبابات بقدر الاستطاعة ستراً من ثنيات الأرض .. وحملت الريح إلى آذاننا أولى الطلقات تدوى من بعيد .. فعلمنا أن الاشتباك قد بدأ .

واستمر الدوى .. يعلو حيناً ويخفت حيناً .. ووصلت إلينا الرسالة بعد الرسالة تنبئنا أن الاشتباك مستمر ، وأن العدو يجاوب نيراننا بما ملكت نيرانه ، وأن المعركة على أشدها .. متأججة اللهب مستعرة الأوار .

وفجأة وصلت إلىّ رسالة أحسست منها بهزة فى جسدى كأن هناك مطرقة أصابت مؤخرة رأسى .. ولم يكن ما جاء بها أكثر من « أصيبت دبابتى » .

ولم تمض بضع ثوان حتى تلتها طرقة أخرى .. أو طعنة أخرى .. أصابت حشاى .. ولم تكن سوى « أنى أموت » .

أجل .. أن « محسن » يموت .

وثوان أخرى وتحدث عامل اللاسلكى يقول إنه قد مات

إنى أبكى وأنا أكتب ما أكتب ، رغم أنه لم يكن لدى وقتذاك فرصة لبكاء . . فقد سلبتنى قسوة الموقف كل مابى من حس وشعور .. وكان يخيل لى أنى لم أعد من دم ولحم، بل من حديد وحجارة . . وكنت أشبه بإنسان ألق به فى بحر من الجليد فجمدت أطرافه حتى فقد حساسيته .

فى ثوان معدودات قضى صاحبى .

أجل .. لقد انتهى فى كلمتين : إنى أموت . . ثم . . مات . وكما قلت لم يكن هناك وقت لحزن أو بكاء . . أو حتى للتفكير فيمن مات . . أياً كان . . حتى ولو كان الميت أنا ! !.

إن كل ما تبقى فينا من حس هو الإحساس بالواجب .

نحن فى عمل . . ولا بد لنا من إنهائه . . فإذا مات واحد منا أو متنا جميعاً . . فذلك أمر ثانوى . . أو قل إنه أمر مفروض . . هل هناك حرب بلاموتى ؟ . . ومافائدة الطلقات والنيران والأسلحة . . إذا لم يقتل بها بعضنا بعضاً .

ذلك هو الشعور الذى كان يخيم علينا وقتذاك . . شعور القسوة والجمود . . أو اللاشعور . . الذى يجعلنا نتجاوز عن الحزن لنستمر فى تأدية واجبنا . . كأننا لم يكن لنا بموتانا أدنى صلة .

وهكذا اندفعت أتمم واجبى ، آمراً إحدى السرايا بالتقدم

لمعاونة سرية المقدمة فى اشتباكها مع العدو ، متقدماً معها .. حتى استجلى الموقف بنفسى .

وبدأنا نقترب من أرض المعركة ، ولاحت لنا دباباتنا وقد تشابكت مع العدو الرابض عن يمينها ويسارها .. وقد بدا لنا أنها قد زجت بنفسها فى مأزق حرج .. وأن العدو يوشك أن يفنيها جميعاً بعد أن حاصرها بنيرانه ، ووجدت أن من الخطأ أن أزج بالسرية الثانية فى نفس المأزق ، وأن من الأفضل أن أحاول تطويق العدو بها ، وأن آمر بحركة التفاف واسعة النطاق حول أحد جناحيه .

وأمرت السرية بالتوقف قبل أن تتورط فى مرمى نيران العدو . . وطلبت من قائدها وهو الملازم « على يحيى » أن يقوم بحركة الالتفاف المطلوبة . . وأفهمته أن لا فائدة من التقدم إلى السرية الأولى لأنه سيتردى فى المصير ذاته ، وأن خير طريقة لإنقاذ من تبقى منها وإجبار العدو على الانسحاب ، هى حركة الالتفاف التى شرحتها له .

ووجدته ينظر إلىّ وقد بدا فى قسماته حزن شديد ولاحت عليه علامات التردد . . كأنه يعترض على ماقلت ، ويود أن يبدى رأياً آخر ، وسألته فى عجلة :

— ماذا ؟ .

ووجدته يضغط على نواجذه كأنه يحبس فى جوفه شعوراً يوشك أن ينطلق . . وعدت أسأله :

— ماذا تريد ؟

ورأيت فى عينيه طبقة لامعة من الدمع الحبيس وسألنى فى صوت مكتوم وهو يشير برأسه إلى حيث السرية الأولى مازالت تتبادل الطلقات مع العدو .

— ومحسن ؟

— ماله محسن ؟

— جثته ؟ . . هل سنترك جثته للعدو ؟ . . لابد أن نحضرها .

وأحسست بالجمود الذى أصاب مشاعرى يتفتت ويذوب . وقفزت الدموع إلى محاجرى وهممت ـ لولا بقية من تجلد ـ بأن أندفع فى البكاء .

لقد عدت مرة أخرى إنساناً . . وهاج قول صاحبى الصغير حزنى . . وأثار مشاعرى . . وبدا لى أن من الواجب علينا أن نحضر جثة « محسن » . . ولكن كان من الجنون أن نتقدم إلى أرض المعركة فى إحدى الدبابات . . فقد كان غرضاً ظاهراً . . وكان العدو لابد مرديها ومصيبها فى الصميم .

وكأنما أدرك «يحيى» ما يجول بخاطرى .. فقال فى إصرار وتأكيد :

— إنى على استعداد أن أتسلل على قدمى وأزحف إلى هناك .. وأؤكد لك أنى سأحضرها فى بضع دقائق .. لن نتأخر .. أؤكد لك ..

ولم يكن به من حاجة لإقناعى .. فقد كنت أنا نفسى متلهفاً على إحضار الجثة العزيزة .. وفى غمضة عين حزمت أمرى .. وقلت له إنى سأذهب معه .

وبدأنا التسلل والزحف .. منتفعين بسواتر الأرض والأعشاب والثنيات حتى بتنا فى منطقة النيران .

هل يستطيع إنسان منكم أن يتصور الجحيم ؟

لقد كنا فيه بلا جدال !! .

كيف لا .. وقد كدت أوقن أنى لم أعد على قيد الحياة .. وأن ما تبقى منى ليس إلا روحاً تطوف بجهنم .. وساءلت نفسى فى دهشة .. إنى يا رب مسلم .. فماذا دفع بى إلى هذا الجحيم ؟

والتفت إلى صاحبى الصغير فسمعته يبسمل .. فلم أشك

فى أنه قد خطر على باله ما خطر لى . . وأنه قد تخيل أنه ليس سوى روح يصلى صقر ! ! .

ووصلنا أخيراً . . والنار من حولنا ومن فوقنا . ووقع بصرنا على دبابة « محسن » .

ونظرت إليه . . ونظر إلىّ .

هل تعرفون الجمر . . الجمر الأحمر المتأجج الذى لا تبصر فيه سواداً ولا بياضاً . . بل قطعة حمراء . . صافية الحمرة .

لقد كانت الدبابة كذلك .

لقد حرقت الدبابة . . ولم يكن بها أثر لدخان .. أوهباب ، بل كانت جمرة حمراء يشع منها الصهد . . وتلفح وجوهنا منها حرارة لاسعة .

ولم نتكلم . . بل بدأنا العودة واجمين فى صمت وإطراق . . وقد شرد ذهننا شروداً شديداً .

وبدأنا العودة متسللين ، كما جئنا ، وسط عاصفة النيران .

ولكن العودة لم تكن سليمة إذ أصيب صاحبى الصغير بشظية فى جنبه أردته على الأرض . . وهو يئن أنيناً خافتاً .

ووجدت الفتى قد راح ضحية رقة مشاعره ومشاعرى وأنه كان من الواجب علىّ ألا ألين . . وأن أترك الموتى لرحمة

ربهم .
وأستمر فى
واجبى حتى
لا أضيف
إلى الموتى ،
ضحايا جديدة .

وبهذه
المشاعر
المتحجرة
تركت الفتى
ملقى على الأرض منه تنزف الدماء ، واندفعت إلى السرية الواقفة تنتظر فأمرت أحد ضباط الصف أن يحمل بعض الضمادات إلى الجريح ويقوم بعمل الاسعافات الأولية حتى ننتهى من مهمتنا .

وبدأت أدفع السرية حول ميمنة العدو ، آمر أسرية أخرى بتطويق ميسرته .

وأحطنا بالعدو .. ودارت بيننا وبينه معركة كبرى ..

انتقمنا منه لأنفسنا شر انتقام ، ودمرنا عدداً كبيراً من مصفحاته وأكرهناه على الانسحاب . . تاركا حطامه وقتلاه ، راضياً من الغنيمة بالإياب .

انتهت المعركة وقد قارب اليوم على الانتهاء ، وأحسست بتعب النهار وسهر الليل يحط على جسدى . . وبدأنا نلم شعثنا ونعود أدراجنا للتجمع والرحيل .

وكان أول ما فعلت هو السؤال عن الصاحب الجريح . . فوجدته قد تمدد بجوار إحدى العربات . . وهو يلفظ آخر أنفاسه .

ركعت بجواره وأنا أحس بأحشائى تتمزق كأن فى جوفى من الشظايا أضعاف ما بجنبه ، وتمنيت لو استطعت أن أفعل له شيئاً . . أى شيء ! !

لِمَ لا تقوى أمانى الأحياء على إحياء الموتى ؟ . . لقد كانت بنفسى من الرغبة فى إعادته إلى الحياة ما أستطيع به أن أحيي جيلا من الموتى ، فَلِمَ لم يبعث حيا ؟ .

لقد جلست بجواره . . وأمسكت بيده بين كفى . . وأحس بى ففتح عينيه . . ولاح على شفتيه شبح ابتسامة . ثم قال فى صوت خافت :

— كيف الحال ؟

ـ انتصرنا وطردناهم من مواقعهم .

ـ الحمد لله .

وكانت المرة الأولى فى حياتى التى أجلس فيها إلى إنسان يموت . . وأى إنسان ! ! . . إنسان جاد بروحه فى سبيل جثة صاحبه ! ! .

وسمعته يتمتم بصوت خافت :

ـ إنى سعيد .

ولم أدرى ماذا أقول له . . وخفت أن ينطلق دمعى . . فجاهدت حتى كبته ، وقلت له فى رفق وحنان :

ـ ألا تريد شيئاً .. ألا أستطيع أن أؤدى لك أى شيء ؟!

ـ كنت أريد شيئاً واحداً لا أظن هناك من يستطيعه ! كنت أريد أن أرى ابنتى مرة واحدة ! ! مرة واحدة فقط .. لقد أوصتنى بأن أحضر لها هدية عند عودتى . . ولقد ابتعت لها قرطاً عندما ذهبت إلى « بيت لحم » .

ومدّ يده إلى جيبه فأخرج قرطاً صغيراً ، وأردف قائلا :

ـ اعطها هذا القرط . . وقبلها لى . . كم كنت أريد أن أعطيها إياه بنفسى . . فليس هناك أحب إلىّ من أن أحمل لها الهدايا .

وصمت لحظة تمالك فيها أنفاسه وعاد يتمتم فى صوت خافت :

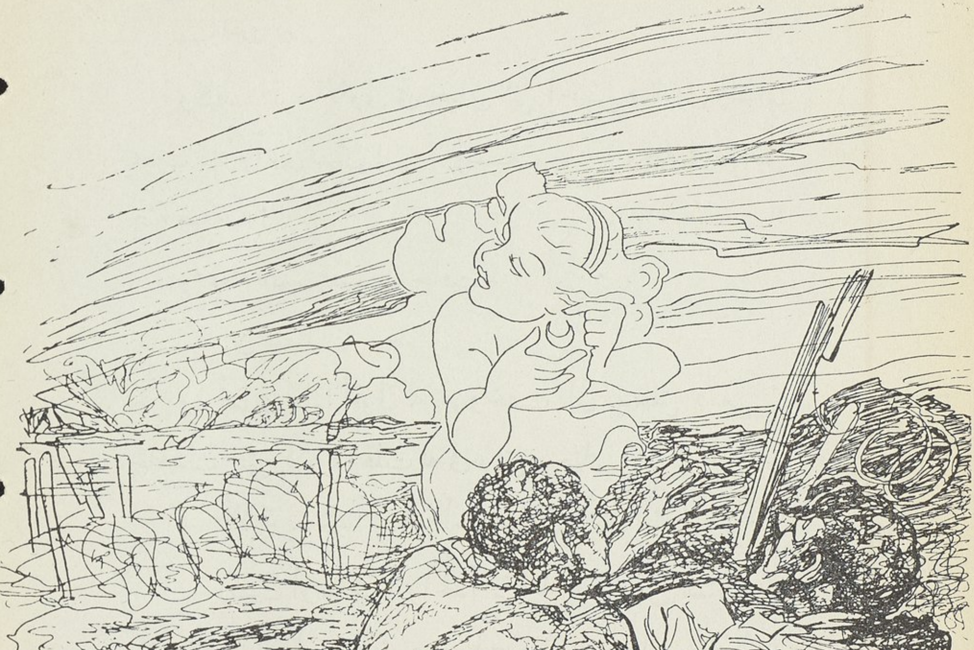

— أريد أن أراها . . مرة واحدة .

وأغمضت عيني . . فقد كان قوله أقسى على نفسى وأشد إيلاماً من أقسى وسائل التعذيب والإيلام .. كيف لا .. وهذا الإنسان الجميل النفس والقلب ، لا يطلب أمنية قبل موته إلا أن يعطى ابنته الطفلة هديتها الصغيرة !

وفتحت عيني . . فأصابتني رعدة . . إذ أبصرت أمامى أمراً عجيباً .

لقد رأيت طفلة . . أو شبح طفلة بيضاء باهتة . . تنحنى على الفتى الراقد باسمة ، وتمد يدها فتأخذ منه القرط ، ورأيت وجهه يتهلل بشراً . ومد ذراعيه فاحتواها بينهما وقبلها فى عطف وحنان . وفى لمح البصر تلاشت فى الهواء . . ولم أعد أبصر سوى الفتى وقد أغمض عينيه وبدت على وجهه أبلغ آيات السعادة والهناء . . وأحسست ببرودة تسرى فى جسدى .

لقد . . مات . . انتهى .

كيف حضرت الطفلة ؟ . . كيف ذهبت ؟ . . لقد كانت لا شك من بنات الأوهام .

إن مارأيت لم يكن إلا من فعل الخيال المجهد المكدود .

وبحثت عن القرط فى يده . . أو فى يدى . . فلم أجده .

أجل لقد كانت المسألة كلها من صنع وهمى وخيالى .

وثوى صاحبي فى باطن الأرض .. وغاب فيها . . كما غاب أصحابه من قبله وكما سنغيب من بعده .

وعدت إلى القاهرة بعد ذاك . . وحملتنى قدماى لأؤدى الرسالة . . ولقيت زوجته . . ولقيت ابنته .

ياالله ! . . لقد كانت نفس الطفلة . . لا تفترق عن الشبح الذى رأيت ، سوى أنها نموذج حى .

وفى أذنها وجدت القرط . .

كيف وصل إليها ؟ . . لم أجسر على السؤال ! ! .

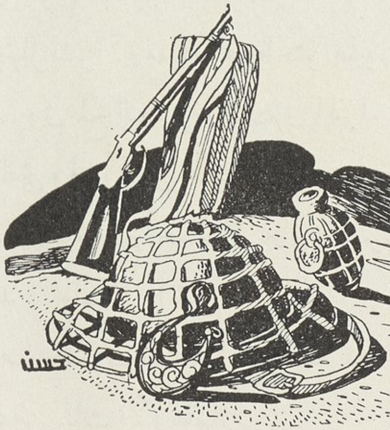

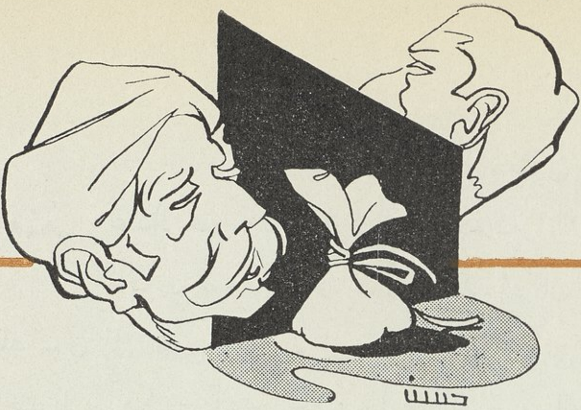

صفقة عجيبة

هذا الرجل العاقل الرزين . . قد باع عربته لشبح من عصر محمد علي . . وهو يقص القصة بمنتهى الثقة والاتزان كأنها حقيقة واقعة . . ماذا أقول له ؟ .

منذ بضعة أيام ساقتنى الصدف إلى لقاء « متولى افندى عبدالرحيم » مدرس الرسم فى مدرسة شبرا الثانوية .

فأقبلت عليه أحييه فى شوق ولهفة ، إذ كان أحب المدرسين إلى نفسى وأقربهم إلى قلبى . . أولا لأننى كنت أجيد الرسم فكنت أعتبر حصصه أوقاتاً للترفيه والتسلية ، وثانياً ، وهو الأهم ، لأنه كان مخلوقاً ما عرفه إنسان إلا أحبه لطيبة قلبه ووداعة نفسه ، ولما فى أطواره من غرابة وطرافة .

كان الرجل فناناً أكثر منه أى شىء آخر . ولم يكن ذا كفاءة ظاهرة فى مهنة التدريس . وهى مهنة تحتاج قبل كل شىء إلى « قرداتى » يعرف كيف يعامل هؤلاء « القرود » الذين يسمونهم « التلاميذ » . أما هذا الرجل الفنان بجسده الرقيق ، وذهنه الشارد ، فقد كان أبعد الناس عن أن يكون مدرساً .

كنا نحبه جميعاً بلا استثناء . . وكيف لا نحب مدرساً لا نكاد نحس وجوده ولا يكاد هو يحس وجودنا رغم ذلك الضجيج الذى كنا نحدثه فيوقظ أهل الكهف ؟

أقول إننى لقيت الرجل منذ بضعة أيام . . لأول مرة منذ سنوات طوال . . وكان اللقاء فى قصر الجوهرة بالقلعة حيث انتدب لإعادة رسم بعض الزخارف ، ولم أره قد تغير

كثيراً عما كان . . بياقته المنشـاة ذات الأطراف المثنية وقد خرج منها عنقه المعروق الرفيع يحمل فى نهايته رأسه الصغير ذا الشعر الأشعث ، وقد أسند منظـاره «السميك» على أرنبة أنفه ، وأغرق جسده فى بذلته « الاسموكن » السوداء .

وأقبلت عليه أحييه . . واستطـاع هو أن يميزنى بنظرة من وراء منظاره ، فرد علىّ تحيتى بنفس الشوق واللهفة . . ودار بيننا حديث لم يكف خلاله عن الانهماك فيما يرسم . . ونظرت إلى تلك الزخارف البديعة ، وهو يحرك عليها فرشاته فى مهارة وحذق ، وقلت بصوت ملؤه الإعجاب :

ــ رائعة . . إن عملك فى منتهى الدقة والبراعة .

فهز الرجل رأسه فى شىء من الاستخفاف ثم أجابنى قائلا :

ــ إننى لا أفعل أكثر من أن أعيد رسمها . . فإذا كنت ترانى بارعاً لمجرد النقل . . فماذا تقول إذاً فيمن خلقها وأوجدها ؟

وصمت الرجل برهة ثم عاد يقول :

ــ يخيل إلىّ أن الذهن البشرى سائر فى طريق العجز . . فنحن فى كل ما نفعل اليوم لسنا إلا ناقلين عمن سبقونا من العباقرة ، ولم نزل إلى الآن نستوحى أفكارهم ومبتكرات عقولهم .

ونظرت إليه وقد انهمك فى عمله ، وقلت أناقشه فى شىء من الدهش :

— الذهن البشرى سائر فى طريق العجز ؟ . لا . لا ياسيدى قد يكون حقاً أننا ننقل عن أسلافنا بعض أفكارهم ومبتكراتهم لنستعين بها . . ولكن هذا ليس دليل عجز . . إن الذهن البشرى قد يأتى الآن بأشياء لو رآها أسلافنا لصرعهم الدهش . . وإنى لا أتصور ماذا يمكن أن يكون حال صاحبنا الذى رسم هذه الزخارف أول مرة لو بعث الآن من مرقده ليرى ماصنعه الذهن البشرى . . دعك من الذرة . . أو اللاسلكى . . أره فقط عربة تجرى فى الطريق .

وهنا رأيت الرجل قد وضع « فرشاته » فجأة ونظر إلىّ بحدة واستغراب ، ثم قال :

— عجيب هذا الذى تقوله عن الرجل ، وعن العربة التى تجرى فى الطريق . . !

— وأى عجب فيه ؟

وأطرق الرجل ، وساد الصمت برهة ، ثم تكلم أخيراً كأنه يحدث نفسه :

— لو رويت لك الحقيقة لقلت ثمل أو مخبول . . هل

يمكن أن تصدق أن الرجل الذى تعنيه قد حضر إلىّ فعلا .. وأننا تحدثنا عن العربات ؟

ويستطيع القارىء طبعاً أن يدرك كيف وقع قول الرجل فى نفسى .. ويستطيع طبعاً أن يدرك مبلغ الجهد الذى بذلته لكى أكسو وجهى مظهر الجد ، وأن أكتم تلك الضحكة التى كانت تصطخب فى صدرى .. لقد كان الرجل جاداً فى قوله .. ولم يبد عليه أنه ثمل أو مخبول .. بل كان يتكلم بلهجة ملؤها الصدق والإخلاص .. ثم هو فوق ذلك مدرس وما زلت أشعر نحوه باحترام التلميذ .. فقلت وقد بدت علىّ أبلغ آيات الدهش :

— شىء عجيب ! ..

— إنه لكذلك .. وقد حدث .. رأيته أمامى كما أراك الآن ! ..

— وكيف أتى ؟ .. ومتى ؟ ..

وصمت الرجل برهة استجمع فيها شوارد أفكاره ثم استطرد قائلا :

— كان ذلك منذ بضعة أيام قبيل الغروب .. وقد انهمكت فى الرسم .. عند ما خيل إلىّ أن شخصاً يرقبنى ولم أكن قد سمعت أحداً يدخل .. ولا كنت أنتظر زيارة أحد . والتفت فجأة فإذا

بى أجده أمامى تماماً كما تقف أنت .. وقد أخذ يرقبنى بهدوء .. مرتدياً سرواله الفضفاض وعمامته وصديريته ومركوبه .. ثم رأيته يهز رأسه بإعجاب قائلا :

— شىء بديع .. هل تعلم أن هذا من صنعى ؟ لا أظن أن عندكم الآن من يستطيع أن يفعل مثله .

ولست أدرى ما الذى جعلنى لا أولى من الرجل - أو من الشبح - فراراً ولا أصرع منه رعباً .. ولكن الله أنزل السكينة فى قلبى ، فوقفت أتحدث إليه كما أتحدث إليك .. بغير خوف أو وجل .. ووجدتنى أقول له مجاملا :

— الواقع أنها شىء رائع .

ورأيته يتلفت حوله ثم يتساءل :

— لقد وجدت على القلعة أعلاماً وزينات .. ما سرّها ؟

— إننا نحتفل بتسلمها .

— تسلمها ؟ .. ما هى ؟

— القلعة .

— تسلمها ممن ؟

— من المحتلين .

— أو قد عاد إليكم نابليون مرة أخرى ؟

— لا .. ليس نابليون .. إنهم الإنجليز هذه المرة !

وبدا عليه الدهش . . ووجدت أنه شخص متعب ، وأننى لو أطعت رغبته فى الاستقصاء على هذا النمط لاضطرنى إلى أن أسرد عليه تاريخ مصر منذ أن شيدت القلعة إلى يومنا هذا.

وكانت الظلمة قد بدأت تنتشر فلم أجد خيراً من التخلص منه بالانصراف . فبدأت أجمع أدوات الرسم فى حقيبتى وأتهيأ للخروج . ونظر إلىّ متسائلا :

— إلى أين ؟

— سأنصرف . . فقد أقبل الليل .

— ولِمَ لا توقد الشموع؟

وهممت بأن أجيبه بأننا لا نستعمل الشموع بل نضىء بالكهرباء . . ولكنى تصورت أى مأزق يمكن أن أضع فيه نفسى إذا سألنى عن الكهرباء فلم يكن خيراً من أن أوفر على نفسى الشرح . . فقلت له ببساطة :

— لقد نفدت الشموع .

ونظر إلى نظرة رثاء لهذا الفقر الذى صرنا إليه ، ثم عاد يسأل من جديد أسئلته التافهة :

— ولِمَ ترك الإنجليز القلعة . . هل هجمتم عليهم ؟

— لا . . لا . . لم تحتج المسألة إلى هجوم أو غيره . لقد استيقظ الوعى القومى وطالب بالجلاء . . فجلوا .

— لا . . لا أظن . . أغلب ظنى أنهم جلوا عنها لأنها قد أضحت قديمة غير ذات قيمة . . وأن الفضل فى جلائهم عنها يرجع إلى انتشار « البق » فيها .

— أنت لا تعرف شيئاً . لقد قلت أن الوعى القومى قد استيقظ ، وأن الأمة كلها قد هبت تطالب بالجلاء ووحدة وادى النيل .

— وحدة وادى النيل ؟ ماذا تقصد . . وممن تطلبون هذه الوحدة ؟

— من الانجليز .

— وما دخلهم ؟

— إنهم يسيطرون على السودان ، ويحاولون فصله .

— ولم لا تطردونهم بجيشكم ؟

وهنا وجدتنى أوشك أن أنزلق إلى مسألة أشد وعورة من شرح الكهرباء ، وهى مسألة شرح حالة الجيش المصرى . فقلت له :

— إن المسألة لاتحتاج إلى جيش ، فالسودانيون إخواننا ونحن وهم شعب واحد ، وهم يرغبون فى الوحدة كما نرغب فيها .

— إذاً فهم الذين سيثورون ويطردون الانجليز ليتحدوا معكم ؟

وأقول الحق أن صبرى كان قد بدا ينفد من الأسئلة التى أخذ ينهال علىّ بها .

ولم أجد بدآ من أن أنبئه أنى فى عجلة لأننى على موعد ولا بد لى من الانصراف ، ومددت يدى إليه محيياً ، ولكنه أنبأنى أنه سيسير معى ، فقلت له إننى لن أسير بل سأركب ، فسألنى : أعندك حمار ؟

فهززت رأسى : كلا ..

— لا شك أن عندك عربة .

— أجل عندى عربة بعشرة خيول .

ورفع إلىّ الرجل رأسه فى ذهول ، وظننى أمزح .. ولكن لم يكن فى قولى شىء من المزاح فقد كانت عربتى فعلا عربة « فورد ١٠ خيل » . ووصلنا إلى العربة ، ووقف الرجل أمامها حائراً . لا يجد أثراً لحصان واحد ... ونظر إلىّ بشىء من الاحتقار ، ولكنى قفزت بسرعة داخل العربة حتى أزيل ما بدا عليه من احتقار ، وأدرت « المارش » ، وبدأت العربة تحدث صوتاً عالياً ، فقد كانت ماسورة « الشاكمان » مكسورة .. فوجدت الرجل قد قفز من مكانه مرتاعاً وأخذ ينظر إلى العربة فى حذر واحتراس .. وطلبت منه الصعود فأخذ يدور حول العربة فى حذر ، ثم تجرأ على

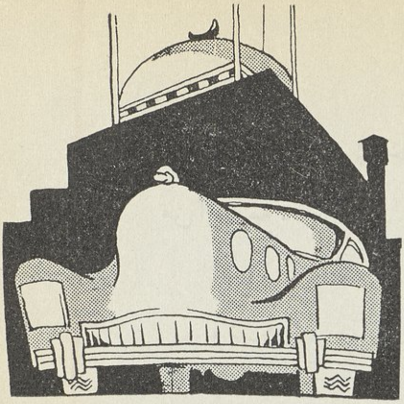

لمسها فلما لم تلحق به أذى أخذ يتحسسها بيديه كأنه يتحسس ضريح أحد الأولياء . . وعلت البشاشة وجهه وبدت عليه فرحة طفل يلهو بدمية .

وجلس بجانبي وانهال عليّ بسيل جارف من الأسئلة حاولت أن أجيب عنها فى حدود معرفتى بالعربات وعلى الأصح جهلى بها . على أى حال ، لقد كانت أسئلته معقولة حتى وجدته يسألنى فجأة أن أبيعه العربة فإن لديه من الذهب مايكفى لشرائها .

ونظرت إلى الرجل الأحمق فى دهش وقلت :

— ولكنها لن تكون ذات فائدة لك . . حقيقة إنه ليست لدىّ فكرة واضحة عن المكان الذى أتيت منه . ولكنى أعرف أنهم لا ينتقلون هناك فى عربات .

— من أنبأك ؟ . . لاتحاول أن تستدرجنى لأشرح كيف يعيشون . . فالواجب علىّ أن ألزم الصمت . على أنه ليس من شأنك أن تكون ذات فائدة لى أم غير ذات فائدة . . المهم هل تبيع ؟

وهنا أخرج من سرواله كيساً مملوءاً بالقطع الذهبية

وأفرغ جانباً منها فى حجره فراعنى بريقها ، وعاد يسأل فى شىء من العظمة :

— كم تريد ثمناً لها ؟

وترددت برهة فقد كنت أعلم قبل كل شىء أنه لا يعدو أن يكون شبحاً ولم أجد ضيراً من أن أسير فى المزحة إلى نهايتها . . فقلت له :

— خمسين قطعة .

وبدأ الرجل يعد القطع .

وأخيراً جمعت النقود فى الكيس ووضعته بجوارى .

* * *

وصمت الرجل . . وأخذت أحملق فيه دهشاً ذاهلا . . هذا الرجل العاقل الرزين . . قد باع عربته لشبح من عصر « محمد على » . . وهو يقص القصة بمنتهى الثقة والاتزان كأنها حقيقة واقعة . . ماذا أقول له ؟ . . لقد قلت متهكماً :

— ثم ماذا . . ماذا حدث بعد أن أعطاك النقود ؟

— لقد حدث بعد ذلك الشىء الغريب حقاً فى الموضوع (كأن كل ماقصه علىّ كان شيئاً لاغرابة فيه) فلقد رأيتنى فجأة على رصيف الشارع فى المكان الذى سمعت فيه آخر كلمة . . بلا عربة وبلا شبح . لقد اختفى كل ما حولى كلمح البرق . .

أو كأنما قد استيقظت من حلم . ولـكنه لم يك قط حلماً :

— هل أنت متأكد ؟

ولم يجب الرجل بل أخرج من حقيبة بجواره كيساً قد ملىء بالقطع الذهبية وبدا يفرغه أمامى قائلا :

ـ لو لم أجد هذا الكيس بجوارى لقلت مثلك أننى كنت فى حلم أو أن ما رأيته لم يكن سوى خيالات ثمل .

وساد الصمت..واستغرقت فى تفكير عميق .. أنا شخص سبق لى أن قلت عشرات المرات أننى لا أومن بالأشباح ولا بالأرواح ، ولذا فقد وجدتنى أحاول أن أجد تعليلا لما قاله الرجل . . لقد كان يبدو لى أنه صادق فى كل ما قال . . فهو من ذلك النوع الذى لا تملك إلا أن تصدقه . . والذى لا يمكن أن يكذب . . إذاً فلابد أن يكون ماقصه قد حدث له . . أو على الأقل قد خيل إليه أنه حدث له . . وعلى ذلك فالمسألة لا تعدو أحد أمرين : إما أنه كان ثملا وسرقت منه العربة ، وهذا غير معقول لأنه قد وجد بجواره النقود . وإما أنه ضحية خدعة محبوكة الأطراف . . وهذا هو الأكثر احتمالا .

وخاصة أنى شاهدت ملابس عهد محمد على متوفرة لدى الجنود الذين كانوا يقومون بالحراسة فى الاحتفال بتسليم القلعة ، وعلى ذلك فلا يستبعد أن يكون خبيث قد استطاع الحصول على هذه الملابس ، وأنه قد مثل دور الشبح مع الرجل خير تمثيل ، وأن ما أعطاه إياه من النقود ليس إلا قطعاً مزيفة ، وأنه قد ضربه ضربة أفقدته رشده ، ثم تركه على إفريز الشارع .

وكنت أعلم أن هذا الافتراض لا يخلو من ركاكة . فإن

هناك وسائل لسلب الرجل عربته أسهل بكثير من هذه الوسيلة . ولكنى لم أجد تعليلا لما قصه الرجل خيراً من هذا التعليل . . ولا شك أننى أستطيع أن أجزم بصدقه لو استطعت أن أثبت أن القطع التى مع الرجل قطع مزيفة .

وسألت الرجل أن يعيرنى قطعة منها حتى أريها لخبير ليتأكد من أنها ليست مزيفة . ولم يتردد الرجل فأعطانى القطعة وتواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى .

وذهبت إلى رجل أعرف له خبرة بهذه الأمور . . وفحص الرجل القطعة وأمعن فى فحصها ولشدة عجبى رأيته ينظر إلىّ ثم ينبئنى أنها صحيحة . وأنها نادرة الوجود ، فهى من القطع التى كانت تستعمل فى عهد محمد على .

ورغم ما كان فى قوله من تأكيد للصفقة العجيبة فإن ذهنى لم يستطع أن يقبل القصة بعد ، وذهبت إلى دارى ، وفى الصباح استيقظت وفى نيتى أن أعيد القطعة إلى صاحبها . . ولكنى لم أجدها حيث وضعتها .

ومضت بضعة أيام وأنا أجهد نفسى فى البحث عنها دون جدوى . . ولم أجد خيراً من الذهاب للاعتذار إليه ، وأن أعرض عليه ثمناً لها .

وذهبت إلى الرجل فلقيني مرحباً ، وبدأت أروى له كيف سرقت القطعة ، . ولكنه قاطعني قائلا ببساطة :

— لاعليك . . لقد أعادها إلىّ !!

— من ؟ . . من الذى أعادها ؟

— الشبح . . لقد أنبأنى أنه خشى أن تضيعها فسرقها منك وأعادها إلىّ . .

وهززت رأسى فى حيرة . . كيف أستطيع أن أصدّق هذا ؟ كيف سرقت ؟ وكيف أعيدت ؟

أغلب الظن أن الرجل بعقله شىء . . لوثة . . أو خبل .

على أية حال . . حمداً لله ، أن الشبح السارق قد أعاد القطعة إليه . . فأبرأ ذمتى .

وحمداً لله أيضاً أننى لم أكن مستيقظاً عند ما ارتكب سرقته . . وإلا كانت « تبقى عباره » .

كيف حدث ما حدث ؟ . . أين ذهبت الدار ؟ . . هل كان كل ما رأيت حلماً ؟ . . هل كانت الفتاة شبحاً ؟ . . هل شفيت الفتاة ؟ . . هل ماتت ؟ . .

حلم يا عزيزي

كان ذلك فى إحدى الأمسيات .. وقد ضمتنا ندوة من الأصدقاء والمعارف . . وكنا خليطاً من مختلف المهن والأعمار، وأخذنا نقطع الوقت بالسمر أو لعب النرد والورق . . وجلست أنا أمام المذياع أنصت إلى بعض الهذر واللغو حتى ضقت به ذرعاً فأسكته . . والتفت إلى الصحبة السامرة أشترك معها فى الحديث ، فسمعت أحدهم يقول متمماً بقية قول لم أسمع أوله :

ـ واستمر الطرق على النافذة فى نفس الموعد كل ليلة .. وكنت أسمع وقع أقدام فوق السطح تغدو وتروح .. ثم أسمع صوت هبوط جسم ثقيل . . وأؤكد لكم أنى لم أكن جباناً فى يوم من الأيام . . ولكن هذه الأصوات فى منتصف الليل كانت تبعث فى جسدى قشعريرة . . ولقد حاولت بضع مرات أن أتسلل إلى الظلمة وقد أمسكت فى يدى سكيناً لعل الطارق أو السائر يكون لصاً . . ولكننى لم أعثر على أحد قط . . وكنت لا أكاد آوى إلى فراشى حتى يعود الطرق . . وأخيراً لم أعد أحتمل . . فتركت الدار تنعى من بناها .

وصمت القوم . . وأخذوا يهزون رؤوسهم فى دهش وتساؤل ، ثم قال أحدهم معلقاً :

– أجل .. لاشك فى وجود الأرواح والأشباح ، لقد سكنا ذات مرة بجوار إحدى الدور المسكونة .. التى قيل لنا أن صاحبها مات محروقاً .. ولم يكن الأنين ينقطع طول الليل وكنا أحياناً نسمع عويلا وصراخاً .

وأمن البعض على أقواله بهز الرؤوس ، وبدت الحيرة على البعض الآخر .

ولم أحتمل هذه الخرافات .. فانبريت أقول وأنا أضحك ساخراً :

– كلام فارغ .. هذه كلها أوهام وتصورات مبعثها ضعف الأعصاب .. هذا الطرق على النافذة ، والأقدام التى تروح وتغدو ، والصراخ والأنين .. لا شك أنها صادرة من مصدر ملموس كائن .. لست أدرى ما الذى يبعث روحاً من الأرواح على أن تمضى ليلها فى دق نافذة ، أو التمشى على سطح .. أو بح صوتها فى الصراخ والأنين ، هذه سخافات .. حرام علينا أن ننسبها للأرواح .. ولو بحثنا جيداً لوجدناها ناتجة عن أتفه الأسباب .

وصاح الصديق صاحب النافذة المطروقة :

– كيف ؟ ومن تظن أنه صاحب الطرقات وصاحب الأقدام التى تغدو وتروح ؟

ـ صاحب الأقدام قد تكون قطة على السطح .. أما الطرقات فقد تكون صادرة من شكل مكسور تعبث به الريح .

واندفع صاحب البيت المسكون يقول فى استخفاف وسخرية :

ـ والأنين والعويل .. ما سببهما ؟

ـ كلب جريح .

ـ لا فائدة من المناقشة معك ، إنك إنسان تستخف بكل شيء وتظن أنك تعرف كل شيء .

واندفع الباقون يسفهون رأيي .. فانتظرت حتى خف ضجيجهم وقلت :

ـ لا بد أن يكون لكل شيء سبب .. ولو بحثنا عن أسباب هذه الخزعبلات جيداً لاستطعنا أن نعثر عليها .. ولوجدناها فى منتهى التفاهة .. لا تمت إلى الأرواح أو الأشباح بأية صلة .

وكان واحد من القوم قد اتخذ مكاناً قصياً .. ولم يحاول أن يشرك نفسه فى المناقشة ، وهو طبيب معروف عاقل رزين فسمعته يقول معقباً على قولى :

ـ معك حق .. فأنا مثلك لا أومن بالأشباح .. ولكن

يخيل لى أن هناك قوى مجهولة تأتى بأفعال ـ غير ذلك العبث من طرق على النوافذ وأنين فى سكون الليل ـ أفعال تعنى شيئاً .. أو تكون ذات فائدة لكائن بالذات .. دون أن نستطيع أن نعلل كيف حدثت أو من فعلها .

ولم أفهم بالضبط ما يقصده الطبيب ، وكذلك بقية الرفاق والظاهر أنه قد رأى قوله غير مفهوم .. فقد تناول ثقاباً وأشعل سيجارته ، وقال وهو ينفث دخانها ببطء :

ــ يبدو أنى لم أستطع أن أوضح قولى جيداً .. إذن فاسمعوا ما أقصه عليكم :

حدث هذا منذ بضع سنين إذ كنت مدعواً لقضاء بضعة أيام فى عزبة « زكى بك عبد العال » صاحب مصانع النسيج المعروفة بالمحلة .. وهو رجل كريم لطيف المعشر .. زرته بضع مرات فى مرض ألم به فأصرّ على أن يرد الجميل بدعوتى إلى عزبته .

ولقد قبلت الدعوة مكرهاً ، إذ كنت موقناً بأنى لن أجد من وسائل التسلية فى عزبته النائية ما يجعلنى أقضى وقتاً طيباً .

وذهبت .. لمجرد رغبتى فى ألا أولم الرجل برفض دعوته على أن أعود بعد يومين على الأكثر .

واستقر بى المقام فى الدار القائمة بين المزارع المترامية ، وأدهشنى أن أجد فى الريف بيتاً بمثل هذه الفخامة .. فقد

كانت تتوفر فيه كل وسائل الراحة والتسلية .

ومرت بي الأيام الأولى دون أن أحس بأى ملل . . فقد كانت لكل تلك المرغبات ـ مضافاً إليها عامل مهم ، أو هو أهمها جميعاً ، وهى بنت أخى زكى بك ـ أثرها الفعال فى استبقائى . . ونسيانى ما كنت قد عقدت النية عليه من عودة سريعة .

كنت أقضى اليوم فى لعب التنس ، أو فى السباحة ، أو فى ركوب الدوكار ، أو صيد السمك . . تشاركنى الفتاة فى كل ما أفعل . . وكانت سمراء جذابة ، شديدة المرح ، تفيض أنوثة وجاذبية .

ورحلت الفتاة فى اليوم الرابع . . وبدأت أحس بالفراغ والوحشة . . وخيل إلىّ أنى قد أحببت الفتاة . . وصممت فى نفسى على أن أتقدم لخطبتها .

وحدث فى اليوم الذى عزمت فيه على الرحيل أن دعانا « عمر بك شريف » لزيارته وقضاء السهرة عنده . . وكان يملك العزبة المجاورة ، وقبيل الغروب أخبرنى « زكى بك » أنه يحس بتوعك وأنه يفضل أن يستريح ، وسألنى أن أذهب وحدى قائلا : إنه قد أمر الأسطى محمود بتجهيز « الدوكار » ليقلنى إلى هناك .

وكنت أحب قيادة الدوكار ، فأجبته بأنى أعرف الطريق

إلى بيت عمر بك وأنى أستطيع الذهاب وحدى .. فلا ضرورة لأن تتعب الأسطى محمود . . دعه يستريح .

وبدأت السير وأنا أحس بنشوة عجيبة . . وكنا فى أكتوبر ، وجو الخريف رطب منعش ، والشمس تتهادى فى الأفق مجررة ذيولها الحمراء على رؤوس الأشجار وأطراف المزروعات . . والجواد يمشى مرحاً .

ولاحت لى أخيراً الأشجار العالية المحيطة بدار شريف بك . . ثم عبرت البوابة الخشبية القائمة أمام باب الدار والمتصلة بالسور الذى يحيط بالحديقة . . وكانت الظلمة قد سادت وتبدد النور إلا بقايا باهتة واهنة تبدى من المرئيات أشباحاً غامضة .

وتسلم العربة والجواد أحد الحراس . . ودخلت الدار فوجدت صاحبها فى انتظارى مع ثلة من الأصدقاء واعتذرت عن زكى بك ثم اتخذت مجلسى بينهم . . متشاغلا بالحديث تارة و باللعب تارة أخرى .

وحان وقت العشاء فنهضنا إلى حجرة الطعام . . وبيد كل كأسه ، وسرت بينهم أحمل كأساً من الويسكى المخفف أخذته بعد إلحاح ، إذ لم أكن متعوّداً الشراب .

ولم أتناول من الطعام إلا قليلا .

وعدنا بعد العشاء لنواصل اللعب والضحك .. وعندما بلغت الساعة العاشرة استأذنت فى الانصراف .

وخرج شريف بك ليوصلنى إلى الحديقة ، ووجدت العربة فى الانتظار ، وقد أضاء الحارس مصباحها ، واتخذت مكانى على مقعد السائق ، وقلت لمضيفى :

ــ أرجو أن أرد ضيافتك فى مصر .. حتى أستعيض الريال الذى خسرته فى اللعب .

وضحك شريف بك وقال :

ــ سأزورك إن شاء الله .. لأضاعف الربح .

وحييته ، ثم جذبت اللجام فتحرك الجواد ولوّحت للرجل بيدى ، وانطلقت من البوابة الخشبية إلى الطريق .

ولم تكن الظلمة شديدة فى بادىء الأمر ، فقد كانت أضواء النجوم تظهر لى هيئة المرئيات واضحة جلية .. ولم يصعب علىّ أن أميز الهيئات القريبة من أشجار وأكواخ ، وكان مصباح العربة يبدد بعض الحلكة فيزيدنى اطمئنانا .

ولكن عندما أمعنت فى السير بدأ الضباب يملأ الجو وزادت الظلمة وذهب الضوء الخافت الشاحب الذى كان يهبط من النجوم المتألقة .. ولم يعد المصباح قادراً على أن يكشف جوانب الطريق .

وبدأت أتمهل وأعيد لنفسى وصف الطريق « ألف إلى اليمين عند شجرة الكافور التى تكدست بجوارها أكوام السباخ . . ويظل الطريق مستقيما حتى أبلغ بضعة أكواخ محيطة بساقية ، فألف إلى اليسار ثم أعبر القنطرة ، وأسير بجوار الترعة حتى أبلغ البيت » .

وأحسست بشىء من الراحة عند ما أقنعت نفسى بأنه لا خوف علىّ من الضلال وسط الضباب والظلمة .

ولاحت لى شجرة الكافور فاتجهت يميناً ، وواصلت السير فى الطريق المستقيم . . وأنا أمعن البصر فيما حولى باحثاً عن الأكواخ والساقية ، وخيل إلىّ أنى قد سرت أكثر مما يجب دون أن أبصر فى الطريق أية معالم . . وتوقفت برهة ونزلت من العربة وأخذت أسير هنا وهناك محاولا العثور على مكان الساقية حيث يوجد الطريق المتجه يساراً والذى يعبر القنطرة .

وعدت إلى العربة دون أن أتبين من حولى شيئا . . وقلت لنفسى أننى قد أكون مخطئاً فى تقدير طول المسافة التى قطعتها وأن الساقية مازالت بعيدة .

وعاودت السير مرة أخرى ، حتى لاح لى طريق يتجه يساراً فدلفت فيه آملا أن أعبر القنطرة بعد حين . . ولكن

السير طال دون أن أعثر على أى أثر . . وأدركت أنى ضللت الطريق ، وقلت لنفسى أن خير ما أفعل هو أن أعود إلى بيت شريف بك لأستعين بأحد رجاله ، أو لأقضى الليلة معه حتى الصباح .

وأدرت العربة عائداً من حيث أتيت . . وبدأت أستعيد لنفسى المرات التى لففت فيها حتى لا أضل فى العودة أيضا .

ومع ذلك فقد ضللت ، وأخذ الوقت يمر بى وأنا ممعن فى السير ، أتخبط على غير هدى .. دون أن تبدو لى بارقة ضوء .

عجباً .. ألا يوجد كوخ واحد من أكواخ الفلاحين أستدل منه على الطريق .. فلاشك أن أى فلاح فى هذه المنطقة يعرف بيت « زكى بك » أو « شريف بك » .

يجب ألا أيأس ، فلا بد أن أعثر على من يدلنى على الطريق ، أو على من يأوينى عنده حتى الصباح .

وسار الجواد متثاقلا يضرب الأرض ضرباته المنتظمة .. وأحسست بالتعب ، وبالنوم يثقل أجفانى .

ولست أدرى بالضبط هل نمت طويلا وأنا ممسك باللجام ، أم أن عينى لم تغفلا سوى لحظة خاطفة . . فالإنسان عندما ينام فى مثل هذه الظروف لا يستطيع أن يعرف مدة نومه ، بل لا يستطيع أن يعرف إن كان قد نام أم لا .

على أية حال لقد كان أول ما أبصرت عندما فتحت عيني ضوءاً يلوح على مقربة .

وبدد رؤية الضوء ما عرانى من خمول . . وحثثت الجواد متجهاً إلى مصدر الضوء . . وبعد فترة قصيرة كنت أقف أمام بوابة خشبية مقفلة .

وهبطت من العربة واقتربت من البوابة القصيرة ودفعتها ففتحت . . ووجدت الأشجار المتكاثفة قد حجبت الضوء الذى كنت أبصره وأنا فى الطريق . . ولم أعد أميز شيئاً أمامى ، فعدت إلى العربة ونزعت منها المصباح حتى أسير على هديه .

وسرت فى ممر ضيق يقوم على جانبه سور من الدرنتة لم تمتد إليه يد القص منذ زمن طويل . . وفجأة انطفأ المصباح ووجدت نفسى مرة أخرى فى ظلمة دامسة . . ولم أجد بدأ من التخبط فى الظلمة حتى أصل إلى نهاية الممر .

ولم يطل بى السير حتى وجدت نفسى أمام بضع درجات حجرية تؤدى إلى باب ، ولاح لى الضوء الذى أبصرته وأنا فى الطريق . . ومددت يدى فقرعت الباب . . ومضت برهة ثم سمعت وقع أقدام متثاقلة تقترب من الداخل .

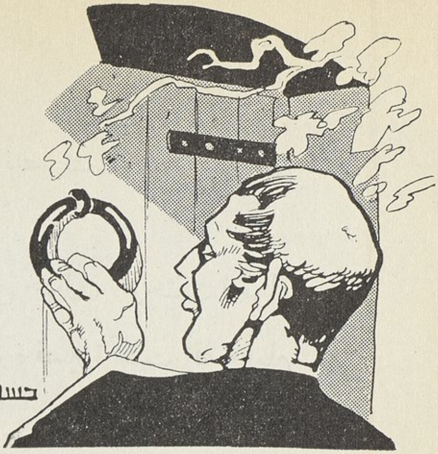

وأحسست بشيء من الخجل وأنا أقف أمام الباب فقد كانت الساعة تكاد تبلغ الثانية عشرة .. وتصورت ذلك الازعاج الذى سببته لأصحاب الدار .. وتصورت حنقهم عندما يتبينون أنى أسألهم عن الطريق إلى بيت فلان « أو علان » .

وتوقفت الأقدام وراء الباب ، ثم ضغط على زر كهربائى فأضاء فوقى مصباح غمر المكان بنور قوى ، ثم فتح الباب ووجدت أمامى امرأة فى خريف العمر ، تلتحف بشال أسود غطى رأسها وكتفيها ، وبدا وجهها أصفر تتخلله بعض التجاعيد وتحيط به الشعيرات البيضاء .

وأحنيت رأسى وقلت بأقصى ما استطعت من أدب ورقة أشرح لها ما أريد :

— مساء الخير .. أنا الدكتور . . . .

وهنا حدث آخر ما كنت أتوقع .. حدث ما تركنى مشدوهاً مذهولا .. وأوقف الكلمات على لسانى .

لم تكد المرأة تسمع منى كلمة « دكتور » حتى اندفعت

إلىّ تمسك بذراعى وتصيح فى صوت متشنج باك :

ــ الدكتور ! . . أغثنا ياسيدى . . أدركنا . . لقد كدنا نيأس من حضورك . . ابنتى يا دكتور . . أرجوك . . تفضل . . لقد أرسلنا الخادم لكى يحضر طبيباً من البلدة منذ ساعتين فلم يحضر حتى الآن .

ولم يكن يسعنى سوى الرضوخ للمرأة ، فقد كانت مفاجأة شديدة الوقع علىّ ، ولم تكن حالتها تعيننى على أن أشرح لها ما أتيت من أجله أو التفاهم معها على أى شىء ! . .

وتبعتها صاغراً مشدوها إلى الطابق الأعلى وهى مستمرة فى نشيجها وتوسلاتها إلىّ أن أنقذ ابنتها .

ودخلت وراءها فى إحدى الحجرات ، فإذا بى أجد فتاة راقدة على فراش . . فتاة . . مازالت صورتها حتى الآن مطبوعة فى ذهنى لاتفارقه .

لقد كانت جميلة مافى ذلك شك . . ولكنى لا أظن الجمال وحده يمكن أن يترك فى نفسى ذلك الأثر . . لقد كان بها ما يشبه السحر .

وجلست بجوارها وهى مغمضة عينيها نصف إغماضة ،

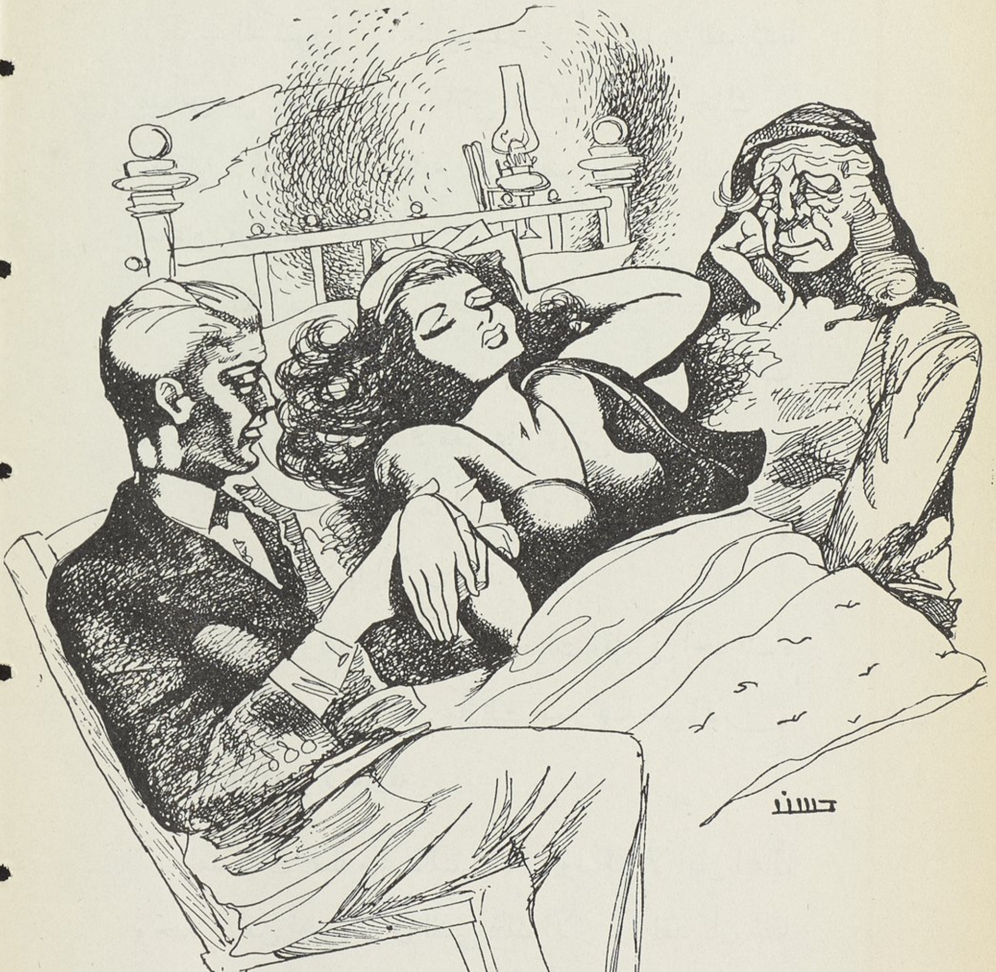

وقد بدا عليها الألم . . فأمسكت بيدهـا أجس نبضها وأنا أطلب من أمها الهدوء ، وسألتها أن تشرح لى ما بها .

ولم يصعب علىّ أن أدرك أن الفتاة مصابة بنزيف أحدث عندها هبوطاً فى القلب ، وأنها فى أشد حالات الخطر ، وأن الإعياء قد بلغ بها حداً تحتاج معه إلى إسعاف سريع وعلاج عاجل .

وكان علىّ أن أبدأ بإعطائهـا كورامين . . ثم آخذ فى إيقاف النزيف وإسعافها بالعلاج العادى .

ولم يكن بالدار شىء من هذا . . ولم تـكن هناك صيدلية قريبة . . .

وتذكرت أن زكى بك يحتفظ فى داره بـكمية من مختلف أنواع الأدوية للطوارىء . . فنهضت من مقعدى ، وقلت للمرأة أنى سأعود إليهـا حالا ، بعد أن أحضر لهـا الأدوية المطلوبة .

واندفعت أهبط فى سرعة جنونية ، وقفزت إلى العربة ، وألهبت ظهر الجواد . . فانطلق يعدو . . .

إلى أين . . ؟ !

يا للحمق والغباوة . . لقد نسيت أهم شىء أتيت من أجله نسيت أنى قد ضللت الطريق .

وهممت بأن أجذب الجواد لأعود إلى المرأة مرة أخرى وأسألها عن الطريق إلى البيت الذى أريده . . فلا شك أنها تعرفه .

ولكنى لم أكد أجذب اللجام حتى سمعت صوت حوافر الجواد تطرق أرضاً خشبية .

عجباً . . إنها القنطرة . . وليس علىّ لكى أصل إلى البيت إلا أن أسير بجوار الترعة .

وعجبت لتصاريف القدر ، لو أننى سرت برهة ولم أتوقف عند الضوء لعرفت الطريق ولما فكرت فى أن أتوقف وأقرع الباب وأعود المريضة التى كانت تتلهف على طبيب .

وأخذت أستحث الجواد ، غير عابىء بظلمة ولا ضباب ، وانطلقت العربة بسرعة جنونية .

وفجأة كبا الجواد . . وأحسست بالعربة تتمايل وتترنح . . ولم أشعر بنفسى إلا وأنا ملقى على الطريق أكاد أهوى إلى الماء .

ونهضت أتحسس أعضائى فوجدتنى سليما لم يمسنى سوء . . ولكن الجواد كان ملقى على جانبه والعربة مقلوبة .

ونظرت أمامى فوجدت أضواء تلوح على بعد ، لم أشك فى أنها صادرة من الدار التى أقصدها .

وبلا تفكير انطلقت أعدو .. ووصلت إلى الدار مبهور

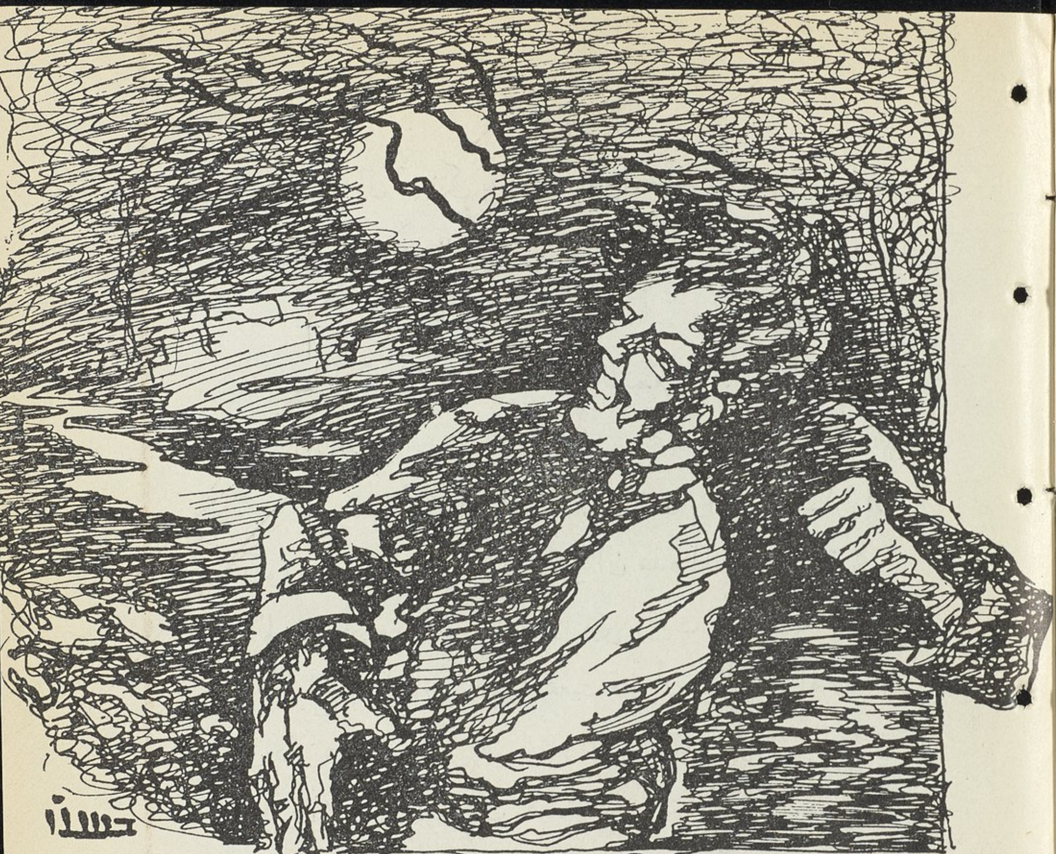

الأنفاس ، خائر القوى ، ووقفت أمام الباب أقرع الجرس قرعاً متواصلا .

وفتح الباب ، ووجدت « زكى بك » ينظر إلىّ مشدوهاً وقد بدا عليه الانزعاج ، وسألنى عما أخرنى إلى هذا الوقت ؟

واندفعت أقص عليه كل ما حدث باختصار ، وأسأله أن يرينى الصيدلية التى لديه حتى آخذ منها ما أريد ، وأن يأمر بتجهيز عربة أخرى .

ونظر إلىّ « زكى بك » فى ذهول واقترب منى يشم رائحة فمى وقال فى هدوء :

— لقد شربت أكثر مما يجب .

— أرجوك يا زكى بك .. استمع إلىّ .. إنى لم أشرب سوى كأس واحدة .

— وهذا أكثر مما يجب .. إن ما رأيته لا يمكن أن يكون حقيقة لسبب بسيط ، هو أن هذه المنطقة لا تحتوى ، - لمسافة أربعين كيلو - غير بيتى وبيت « شريف بك » ، وأكواخ الفلاحين .. وما سمعت قط أن هناك امرأة وابنتها فى دار على مقربة من هنا ، وأنت نفسك مررت بالطريق قبل ذلك ، فهل أبصرت هذه الدار التى تتحدث عنها .. ؟ ادخل .. ادخل هداك الله .

— ولكننى أقسم أن مارأيته حقيقة ، إن الفتاة توشك أن تقضى نحبها .

وكنت ، وأنا أؤكد له قولى ، أقول لنفسى : حقاً إنى لم أبصر أثراً للدار قبل الليلة .

ومع ذلك فقد أصررت على العودة ، وعلى أن آخذ الأدوية ، وقال لى زكى بك :

— لا يمكن . . لن أدعك تخرج . . إنك متعب . . انتظر حتى الصباح وسأذهب معك بنفسى .

— ولكن لن تعيش إلى الصباح .

ومع ذلك فلم يكن هناك بد من الانتظار . . فقد أصرّ زكى بك على ألا يعطينى الأدوية ، وألا يسمح لى بالخروج ، وكانت قدماى لا تقويان على حملى من فرط ما عدوت . . ولم أجد بدّاً من الاستلقاء بملابسى على إحدى الأرائك حتى الفجر .

وقبل أن تشرق الشمس ، كنت أوقظ زكى بك وأرجوه فى إلحاح أن يعطينى الأدوية .

وهز الرجل رأسه فى دهش واستسلام ، ثم نهض وارتدى ملابسه وانطلقنا بالعربة بعد أن أحضرها رجاله وأصلحوا ما بها . . وغيروا الجواد .

ولا أظننى فى حاجة إلى أن أخبركم مبلغ ذهولى وخجلى ، ونحن نجوب المنطقة شبراً شبراً . . نبحث عن الدار المزعومة فلا نجد لها أثراً .

* * *

كيف حدث ماحدث .. ؟ أين ذهبت الدار .. ؟ هل كان كل ما رأيت حلماً طاف برأسى وأنا نائم على مقعدى بالعربة ثم أيقظنى منه وقوع الجواد وانقلاب العربة ؟ .. هل كانت الفتاة شبحاً ؟ .. هل شفيت الفتاة ؟ .. هل ماتت ؟

وساد القوم سكون عجيب إلا من صوت خافت همس بيننا :

– أجل ماتت ..

ونظرنا متعجبين إلى صاحب الصوت وكان رجلا كهلا حديث المعرفة بنا .

وتلفت إليه الطبيب وسأله فى دهش شديد :

– من أدراك .. أتعرفها ؟

فأجاب الآخر فى صوته الخافت ونبراته الهامسة :

– أجل إنها ابنتى .. ماتت منذ أربعة أعوام ، إذ حدث لها نزيف أودى بها .. وكنا نقطن وقتذاك فى الأقصر ، حيث كنت أعمل فى السكة الحديد .. وغبت عن الدار ذات ليلة فى جولة مرور .. وعندما عدت فى الصباح وجدت الابنة قد ماتت .. والأم تردد فى شبه هذيان :

– لو عاد الطبيب ، لما ماتت ..

وعلمت منها أن النزيف حدث فجأة وأنها أرسلت الخادم يبحث عن طبيب فطالت غيبته .. وأخذت تدعو الله أن يعجل بحضوره.. وفجأة طرق الباب ، ودخل الطبيب ، وقد بدا لهما كأنه هبط من السماء.. وفحص الفتاة ، ثم قال إنه سيعود سريعاً بعد أن يحضر الدواء والاسعاف اللازم.. ولكنه لم يعد قط .

وصمت الرجل ثم مدّ يده إلى جيبه فأخرج محفظة صغيرة سحب منها شيئاً . . أعطاه للطبيب .

وفغر الطبيب فاه ، وجحظت عيناه ، وهتف بصوت مبحوح وهو يحملق فى الصورة :

— إنها هى .

* * *

مجنونان .. مخبولان . . كيف يصدق عاقل مثل هذا الهراء ؟ .

أيمكن أن يحدث هذا ؟ .

أهذا ما عناه الطبيب بقوله أن هناك قوى مجهولة تأتى بأفعال — غير ذلك العبث من طرق النوافذ وأنين فى جوف

الليل ؟ ! — أفعالا تعنى شيئاً دون أن نستطيع أن نعلل كيف حدثت أو من فعلها .

كيف يمكن أن يعلل ما حدث ؟

أهو تجاوب أرواح .. الله وحده أعلم ..

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى » .

إذا السماء انشقت

ووصل الى أذن الصبي صوت موسيقى عذبة ناعمة . . وأحس بهدوء جميل . . لم يحس به فى الأرض قط . . وهتف بأبيه وأمه . . ما أجمل السماء ! ! وما أقبح الأرض .

فى ليـلة ليلاء . . علا الشحوب كواكبهـا ، وأضنى السهد نجومهـا . . ليلة من ليـالى الصيف ركدت ريحهـا ، وسكنت أنفاسها . . رقد جسدان كساهما البؤس أحلك حلله وأبلى ثيابه ! !

رقدت « أم أحمد » على سطح الدار المتواضعة . . الكائنة فى « عشش الماوردى » والتى اتخذت منها مأواها . . وأخذت تتقلب وتتململ . . فلقد ألحّ عليها الداء وأنهكتها العلة . . ومضت عليهـا بضعة أيام وهى طريحة الفراش - أو قل الحصير - لاتقوى على الحراك . . وخفت صوتها الذى تعوّد أهل الحى أن يسمعوه فى كل صباح منادياً : « أبيض يانابت » . فما عادت بها بقية رمق تعينها على السير أو الصياح .

وحملقت المرأة بعينيها فى السماء . . وأحست بجفاف فى حلقها . . وضيق فى تنفسها . . وكأنمـا أحست بشىء ثقيل يجثم على صدرها أو كأنها غارقة فى عباب أصم .

وقلبت المرأة عينيها يمنة ويسرة . . عينان أرمدهما الفقر والحرمان ، وكسف ضياءهما المرض والمسغبة . . عينان سئمتا العيش وطلبتا الفنـاء . . ولم يعد بهما من أشعة الحياة إلا شعاع خاب .

ووقع بصرها على الجسد الصغير الراقد بجوارها . .
فاعتلجت فى صدرها ظلمة اليأس ونور الرجاء ، كما يعتلج فى الغروب دجى الليل وضوء النهار . . وتمنت لو استطاعت أن تقاوم الموت . . وأن تتعلق بأهداب الحياة . . من أجل هذا الشقى الصغير حتى تدفع عنه خطوب الحياة وتقيه بأسماءها ! !

ولكنها أحست بالموت يقترب منها فى غير رفق . .
وأدركت أن أملها فى الحياة قد ذرته الرياح . . فملأها الحنين ووددت لو استطاعت أن تسمع صوته قبل أن ترحل . . وأن تلقى عليه تحية وداع .

وهزّت الطفل توقظه فى رفق . . وتقلّب الطفل برهة قبل أن يفتح عينيه ثم نظر إليها والنعاس ملء جفنيه فهمست إليه :

ـــ أحمد . . إنى ذاهبة ! . .

وبدأ النعاس يتطاير من عينى الطفل . . وبدت عليه علامات اليقظة ، وهزّ رأسه الصغير متسائلا :

ـــ إلى أين . . ؟

وأشارت الأم المحتضرة بسبابتها إلى أعلى وعادت تهمس :

ـــ إلى فوق . . .

ونظر الطفل حوله فى دهش ولم يفهم ما تعنيه بكلمة «فوق»

ووقع بصره على أطراف نخلة عالية تقع أمام الدار المجاورة وهتف متسائلا :

– أتنوين أن تصعدى إلى النخلة ؟

– لا .. سأصعد إلى أعلى من النخلة ، سأصعد إلى السماء !

وزادت يقظة الطفل ، واشتد دهشه وحملق ببصره يتأمل السماء بإعجاب بالغ ، وعاد يسأل وفى صوته رنة فرح :

– ستبيعى « النابت » فى السماء ؟ ستأخذينى معك بالطبع ؟

وهزّت المرأة رأسها وأجابت فى صوت خافت :

– بل سأذهب وحدى هذه المرة .

وبدت علامات الخيبة على وجه الطفل ، وقال فى لهجة تأنيب :

– تذهبين وحدك .. ولِمَ لا تأخذينى معك .. ؟ إنى لن أضايقك ، ولن أجرى منك ، ولن أضرب الأولاد فى الطريق سأكون هادئاً طيباً ، وسأفعل كل ما تأمرينى به .

– لا أستطيع أن آخذك !

– وأنا لا أستطيع أن أبقى وحيداً ..

– لن تكون وحيداً ..

– ماذا تعنين ؟

– سأكون معك دائماً !!

وبدت الحيرة على وجه الطفل .. ونظر إلى وجه أمه الشاحب ، وعينيها الخابيتين .. ثم نظر إلى السماء ، وقلَّب الطرف بين النجوم ، ثم هز رأسه متسائلا:

– كيف ؟ .. إن المسافة بيننا ستكون بعيدة جداً ؟!

– لا .. لا .. سأطل عليك من هناك .. سأبصرك فى كل لحظة .. سألتقى هناك بأبيك .. وسنرعاك كلينا .. إنى سأصعد الآن وعليك أن تهبط فى الصباح إلى «الست أم حسين» صاحبة البيت .. وتخبرها بأنى ذهبت .. إنها امرأة طيبة .. ولا شك أنها ستحنو عليك وتأويك فى دارها .. كن رجلا واخبرها بأنك تستطيع أن تعاون زوجها فى حانوته .. حتى تكسب عيشك ولا تكون عالة عليهم ، إياك و « الشقاوة » كن هادئاً عاقلا .. فلن يرحمك أحد ، وإياك أن تسرق مهما حدث .. ومهما بلغت بك الحاجة ، وإلا سجنوك .. إنى سأرقبك دائماً ولن يخفى علىّ شىء مما تفعل .. وسأستمع إليك كلما حدثتنى ...

وتجاوز الطفل عن النصائح .. فقد كان أهم ما يشغل ذهنه الصغير ، هو كيف تستطيع أمه أن تصعد إلى السماء .. وهى تبدو فى نظره بعيدة جداً ، وليس بينها وبين الأرض أى سلم أو مرتقى .. وهب أنها صعدت بطريقة ما فكيف

تستطيع أن ترقبه ، وكيف تسمعه إذا ما تحدث إليها ؟! وعاد يستفسر متسائلا :

— إن السماء تبدو بعيدة جداً ، فكيف تستطيعين سماعى !

— ليست بعيدة كما تتصور . . .

وأخذت تقلّب عينيها يمنة ويسرة ، فوقع بصرها على شبح مدخنة « وابور الرمالى » ولم يكن بالناحية ماهو أكثر منها علواً ، ولا أشد ارتفاعاً ، وأردفت تقول :

— أجل . . إنها لا تبعد كثيراً عن « مدخنة الرمالى » .

وجلس الصبى فى مكانه ، وأخذ يحملق فى شبح المدخنة الأسود الرفيع ، وبدت عليه الحيرة ، وهمس كأنما يجيب على خاطر خطر له :

— ولكنى لن أستطيع تسلق المدخنة !

وسمعت أمه قوله ، فقالت محذرة :

— إياك أن تحاول تسلقها . . إنتظر حتى تكبر وتصبح رجلا . . فتستطيع أن تتسلق السلم الحديدى الملاصق لها . . وسأهبط وقتذاك لألقاك وأتحدث إليك .

ونظر الطفل إليها فى ريبة فقد كانت المسألة كلها صعبة التصديق . . وبدت له أمه كأنها امرأة غريبة . . فقد ظهر التحجر فى مقلتيها . . والتقلص فى شفتيها . . وأحسّ برعدة

خوف تسرى فى جسده . . ووصل إليه صوتها ضعيفاً خافتاً كأنه صادراً من جوف بئر عميق وسمعها تقول :

— نم . . اغمض عينيك ونم . . حتى أستطيع النوم أنا الأخرى . . إنى سأخلد إلى راحة طويلة . . سأهرب من الحياة . . إنما المسكين أنت . . مازال عليك أن تحمل عبأها طويلا . . مازال عليك أن تؤدى دورك فى دنيا التعاسة والشقاء والعوز والحرمان .

وأغمضت المرأة عينيها . . ولم يلبث الطفل أن راح فى سبات عميق .

وفى الصباح استيقظ الطفل فوجد أمه ما زالت راقدة بجواره . . وابتسم فى غبطة .

إنها لم تذهب .. لم تصعد إلى السماء ، كما قالت له . . لاشك أنها كانت تضحك عليه . . أو ربما كانت تحلم .

وهزّها بيده الصغيرة محاولا إيقاظها . . وهتف بها :

— آم . . آم . . .

ولكن المرأة لم تستيقظ ولم تجبه . . وعاد يهزها ويصيح بها ، وهى تأبى أن تستيقظ ، حتى بدأ الحزن يتملكه ، وهبط إلى « أم حسين » ليستعين بها على إيقاظ أمه .

وصعدت «أم حسين» مع الطفل، ووقفت أمام المرأة تنظر إلى جسدها المسجى بلا حراك ..

وقال لها الطفل :

– لقد طلبت منى أن أخبرك أنها ستصعد إلى السماء . ولكنها لم تصعد !

وأجابته المرأة بثقة :

– بل صعدت .

وكان الأمر أعوص من أن يفهمه الطفل .

كيف يقولون إنها صعدت إلى السماء .. وهى ما زالت راقدة أمامه ؟ !

وعادت المرأة تقول مفسرة :

– إنها ماتت .

إذاً فهذا هو الموت !! .

هذا هو تفسير اللغز وحل العقدة ! ! أن نصعد إلى السماء ونبقى فى الأرض فى وقت واحد ! ! .. إنها والله مسألة لطيفة ليته يستطيع هو الآخر أن يموت !

وسحبته المرأة من يده وهبطت به إلى أسفل .

والتقى فى فناء الدار بصاحبه على « ابن أم على » فأنبأه ضاحكا . . أن أمه ماتت ، وأنها قالت له أشياء عجيبة سينبئه بها فيما بعد .

وخرج الطفلان يلهوان فى « الحارة » المجاورة . . وانضما إلى ثلة من أطفال الحى ، وقد سرى بينهم نبأ موت «أم أحمد» « بائعة النابت » . . فتلقوه ببساطة وانهمكوا فى لهوهم .

ولعب «أحمد» فى ذلك اليوم كما لم يلعب من قبل ، ولم يجد هناك من ينهره أو يناقشه الحساب .. ولم تبحث عنه أمه لتعيده إلى الدار . . وأخيراً أحس بالجوع فتخلف عن الصبية وعاد متسللا إلى الدار . . فراعه ذلك السكون المطبق والصمت المخيم . . وصعد إلى السطح وقد تملكه الخوف من أن تنهره أمه . . ولكنه لم يجدها راقدة حيث تركها ، فأحس ببعض الاطمئنان . . وبعد مدة عضه الجوع مرة أخرى . . فلم يجد بداً من البحث عنها حتى تطعمه . . وصاح منادياً : « آم » . . فلم يجبه سوى صدى صوته . . فعاد يهبط السلم الحجرى المتآكل

وصادف على « بسطة السلم » العجوز « بهانة » فسألها : أين أمه ؟ فحدجته فى حسرة وقالت :

— ذهبت إلى « التربة » ؟

— ومتى تعود من « التربة » ؟ . . ولِمَ ذهبت . . ؟

— ذهبت لأنها ماتت . . أما عن عودتها . . فلا أظنها ستعود أبداً . . إن الموت لا يعيد أحداً .

الموت ! ! . . إنه لا شك مشكلة عسيرة ! ! أصعب كثيراً مما كان يظن . . لشد ما خدعه الموت . . كيف يذهب بأمه إلى « التربة » ولا يعيدها أبداً . . ولكن من يدرى . . ربما يكون هو الذى ذهب بها إلى السماء . . ولكن العجوز الحمقاء ظنت أنه ذهب بها إلى التربة .

أجل . . أجل . . لقد حل العقدة وفهم اللغز . . إن أمه لا شك قد ذهبت إلى السماء كما قالت له . . لقد ذهب بها الموت . . ليته يذهب به هو الآخر .

ولكنه لن يرضى . . فلقد قالت له أمه أنه مازال عليه أن يؤدى دوره فى دنيا التعاسة والشقاء والعوز والحرمان . . فلينتظر إذن حتى يؤدى دوره .

ومرت الأيام بالطفل . . فإذا الدور ثقيل منهك . . لقد خذله الموت خذلاناً شديداً . . لقد أخذ منه أمه . . حقيقة

أن ذهابها قد هيأ له فرصة اللهو بلاحساب ، واللعب بلازجر ولانهر . . ولكنه قد حرمه من ملجأ يلجأ إليه وملاذ يلوذ به حرمه أحضانها الدافئة . . وذراعيها اللتين طالما ضمتاه فى رفق وحنو ودفعتا عنه غائلة السوء . . حرمه يديها اللتان أطعمتاه وسقيتاه . . حرمه ألفاظ التدليل ، والحنان والحب . . لقد حرمه كل شيء . . ثم هو يأبى بعد ذلك أن يصعد به إلى حيث صعد بأمه .

إن أحداً لا يشعر به ولا يحس وجوده . . إنه يذهب حيثما شاء ووقتما أراد . . لا أحد يسأله إذا كان قد شبع أم جاع . . روى أم ظمىء . . عرى أم اكتسى . . نظف أم اتسخ . . لشد ما كان يشبه تلك الكلاب الضالة والقطط الجائعة .

و « أم حسين » ــ سامحها الله ــ قد ألقت عبأه عن كاهلها فما كانت ــ على حد قولها ــ تنقص أعباء . . حتى تحملها « أم أحمد » عبء ابنها فوق أعبائها .

ومرت الأيام . . والطفل يهيم على وجهه . . يقوم بدوره فى دنيا التعاسة والشقاء خير قيام . . ويحمل من البؤس والحرمان والجوع والفاقة ما أنقض ظهره . . وأقبل الشتاء ومس الطفل بقره . . فأحس بأن الكلاب والقطط تفضله

لأن الله قد وهبها ماقد حرمه منه . . وهبها الفراء الذى يقيها القر . . وهبها كساء طبيعياً .

واشتغل الطفل بجمع أعقاب السجائر .. وانضم إلى زمرة الصبية « لمامى السبارس » ، وهيأت له مهنته الجديدة بضعة مليمات تقيه شر الجوع .

وفى ذات ليلة من ليالى أمشير العاصفة . .كان الطفل يسير « بكوزه الفارغ » فى شارع الخليج . . وكان الجوع ينهش أحشاءه . . فإنه لم يصب فى يومه إلا قدراً يسيراً من الأعقاب لم يقبل الرجل « تاجر السبارس » أن يعطيه عنه مليما واحداً . . وهبت عليه ريح صرصر لم يستطع كساءه الرقيق الممزق أن يمنعها من السريان فى جسده فأصابته من جرائها رجفة .

وساقه الجوع والفقر إلى أن يلتمس من « أم حسين » طعاماً ودفئاً . . فاتجه إلى دارها وطرق بابها بقبضته الصغيرة ووصل صوتها من الداخل متسائلا : « مين ؟ » .

وأجاب الطفل :

ــ أنا . . أحمد . .

ولم تفتح المرأة . . بل وصل إليه صوتها مرة أخرى ناهراً صاخباً ، آمراً إياه أن ينصرف من حيث أتى . . « وبلاش بلاوى » فهى لا تكاد تحتمل « بلاويها » .

ووقف الطفل برهة . . ثم وجد قدميه تصعدان به إلى السطح . . حيث تعوّد أن يرقد فى أحضان أمه . . وحيث فارقته آخر مرة صاعدة مع الموت إلى السماء .

وجلس الطفل منكمشاً يرقب السماء .

ترى هل تراه أمه كما أنبأته . . وإذا كانت تراه فهل يرضيها أن تتركه على حاله تلك من الجوع والعرى ؟ ماذا كان عليها لو أخذته معها إلى السماء . . أترى كان سيثقل كاهل الموت لو حمله معها ! . . وقلب الطرف فيما حوله فلمح شبح المدخنة ، وتذكر ماقالته أمه من أن السماء لاتبعد كثيراً عن المدخنة . . وأنه ليس عليه إلا أن ينتظر حتى يكبر ثم يصعد على السلم الملاصق لها .

وشرد به الذهن برهة . . وأحس أنه لايستطيع أن ينتظر حتى يكبر . . إنه يستطيع أن يتسلق السلم الآن . . لقد ضاق بالأرض ذرعا . . ولا شك أن أمه ستلقاه بكل ترحاب . . وتقيه غائلة الجوع وعادية البرد .

واختمرت الفكرة فى رأس الصبى . . فكرة تسلق المدخنة والصعود بوساطتها إلى السماء . . حيث يلقى أمه ويمتع بكل ما حرم منه فى هذه الأرض .

وهبط الصبى الدرج ، وعبر «شارع الخليج » وبعد لحظات

كان يقف أمام البوابة الخلفية لوابور الرمالى .. وفى غفلة من الخفير الجالس على حجر أمامها استطاع أن يتسلل إلى الداخل وعدا متجهاً إلى قاعدة المدخنة .. ولم يطل به البحث عن السلم حتى عثر عليه .. وسرعان ما أخذ يتسلق قضبانه الحديدية الضيقة .

ومضت فترة والصبى منهمك فى الصعود ، مستعيناً بقدميه ويديه على تسلق القضبان الحديدية .. وأحس بشىء من التعب ، فوقف برهة يتمالك أنفاسه .. ونظر من فوق كتفه إلى أسفل فوقع بصره على الخفير وقد غادر مجلسه متجهاً إلى قاعدة المدخنة .. فأصابته رجفة وتملكه الخوف من أن يكون الرجل قد أحس به وأنه سيقبض عليه ويعيده إلى الأرض .

وعاود الصعود بكل ما فى جسده الصغير من جهد خشية أن يلحق به الرجل .. واستمرت يداه وقدماه فى تسلق القضبان الحديدية دون أن يجسر على أن ينظر إلى أسفل .. وأحس بالريح الباردة تسرى فى عظامه .. وكلما ازداد صعوداً ازدادت الريح شدة وعنفا .. وازداد صفيرها فى أذنيه .. وتملكه التعب وأنهكه الصعود ، وأحس كأن يديه وساقيه توشك على التصلب .. ونظر إلى أعلى فبدا له السلم يمتد فى ضيق ، وكأنه ينتهى فى جوف السماء .. ونظر إلى أسفل

فبدت له أسطح الدور موحشة مظلمة .. وبدت له المرئيات صغيرة كالدمى .

وعاد يستحث نفسه ويستجمع قواه .

بضع درجات أخرى ويصير فى السماء .. من يدرى ؟ قد يستطيع وقتذاك أن يسمع تسبيح الملائكة وترنيمهم بل قد تمتد إليه يد الله فتحمله إلى أعلى فيسير متجولا فى شوارع السماء الذهبية التى لا حر فيها ولا قر ، المليئة بالأطعمة والفاكهة .. وسيلتقى بأمه التى طال شوقه إليها .. وسيرى أباه الذى لا يستطيع أن يتذكر شكله .. إنه لا شك سيحمله بين يديه وسيعطيه نقوداً كما يفعل كل الآباء مع أبنائهم .

وتحامل الصبى على نفسه وعاود الصعود .. وكان صعوده فى هذه المرة بطيئاً متثاقلا .. فقد كانت قواه خائرة وأطرافه مرتجفة والريح فى اشتداد .. وأحس برأسه يدور .. وبغشاوة تعلو بصره .. ونظر إلى أعلى فخيل إليه أنه قد وصل .

أجل .. لقد وصل أخيراً فهذه الضياء التى تشع ، وهذه

الجبال الذهبية المضيئة القمم ، وهذه الأشجار المتكاثفة التى تلوح من بعيد . . لابد وأن تكون الجنة نفسها .

ووقف الصبى يلهث . . مبهور الأنفاس .

لقد أضحى الآن بين السماء والأرض .

وعاود الصعود ينقل قدميه ويديه وكأنها من فرط التصلب والانهاك لم تصبح منه . . بل وكأنها أطراف إنسان آخر . . بل كأنه هو نفسه ليس هو .

وأخيراً أعياه الجهد وجمدت أطرافه . . وخيل إليه أنه لن يستطيع الحراك . . إنه فى حاجة إلى من يعينه . . لقد أنبأته أمه أنه إذا صعد السلم فستهبط للقائه . . ترى أين هى ؟ !

وأحس الصبى بالبكاء يخنقه . . وصاح يستنجد فى صوت مبحوح « آم » . . . « آبا » .

وحملت إليه الريح صوتاً حنوناً يهتف به « إنى آتية » .

وسرت فى جسده قشعريرة ، لقد كان الصوت صوت أمه لقد أحست به أخيراً . . وهى لا شك قادمة إليه . . إنه كان يحس أنها لا شك آتية . . فما خذلته قط فى الأرض . . ولا فى السماء .

واندفع الصبى فى نوبة من البكاء . . وأحس بأطرافه تتراخى ، وبأنه لم يعد يقوى على التماسك . . وأنه يوشك

أن يهوى .. وبعد لحظة . . أحس بأن أصابعه قد أفلتت السلم وأنه قد هوى فعلا . . فصرخ صرخة مدوية صائحاً : « آم . . إلحقيني يام » .

وهنا انشقت السماء ، وهبط منها سلم ذهبي قد تعلقت الأم بطرفه ومدت يدها فجذبت الصبي بعد أن أفلتت أصابعه سلم المدخنة وناولته لرجل قد وقف في أعلى السلم الذهبي .. فاحتضنه بين ذراعيه وأخذ يتسلق به السلم والمرأة وراءه .

وأحس الصبي بالدفء والراحة . . إن الرجل لا شك أبوه . . لشد ما طال شوقه إليه وإلى حمايته .

واستمر الثلاثة فى الصعود على السلم الذهبي .. واحتوتهما أضواء السماء . . ووصل إلى أذن الصبي صوت موسيقى عذبة ناعمة . . وأحس بهدوء جميل . . لم يحس به فى الأرض قط ، وهتف بأبيه وأمه . . ما أجمل السماء ! ! وما أقبح الأرض .

* * *

استيقظ غفير « وابور الرمالى » فجأة من غفوته وهو جالس على الحجر أمام البوابة ، على صوت صرخة مدوية . . وطرق سمعه صوت اصطدام جسم بالأرض أسفل المدخنة . .

وأسرع إلى مصدر الصوت فراعه جسد صبي صغير . . وقد تحطم إربا .

ومنذ ذلك اليوم ونسوة « حى الماوردى » يحذرن أبناءهن من الاقتراب من المدخنة .. أو التسلق عليها . . وإلا حدث لهم ما قد حدث للصبي .

ترى ماذا حدث للصبي ؟ لقد هبط جسده فثوى فى غياهب الأرض . . وصعدت روحه فاستقرت فى أنوار السماء . . ماذا يضير الجسد الفانى أن يطوى فى الغياهب مادامت الروح الباقية ستنشر فى الأضواء .. أليس ذلك خيراً من أن تتردى الأرواح وتنعم الأجساد .

ما أحمق الإنسان . . يخشى على الجسد الفانى . . ولا يخشى على الروح الباقية .

فهرس

الإهداء ٣

المقدمة ٦

حديث على قبر ٩

أرواح هائمة ٣٩

شبح فى فراش ٥٩

صوت روح ٧٧

معجزة كبرى ٩١

الحاجعلى ١٠٥

حياة مزدوجة ١٢٣

كانت هناك ١٥٣

صوت مجهول ١٧٣

هذا البيت لى ١٨٩

خذنى معك ٢٠٥

مات قريراً ٢١٧

صفقة عجيبة ٢٣٣

علها عند ربى ٢٤٩

إذا السماء انشقت ٢٧١

شركة فن الطباعة
شارع الأزهار رقم ١ شبرا مصر
تليفون ٥٨١٤٩ صندوق بوستة ٤ شبرا

الناشر مكتبة الخانجي

شركة فن الطباعة

[illegible]

[illegible]

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 072236084